

يوليوس قيصر

كامل كيلاني



يُؤْيُوسُ قَيَصَر

تأليف
كامل كيلاني



يُولْيُوس قَيَّصَر

كامل كيلاني

الناشر مؤسسة هنداوي

المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شبييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة

تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: <https://www.hindawi.org>

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

رسم الغلاف: ورود الصاوي

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٠٢٤٤ ٠

صدر هذا الكتاب في تاريخ غير معروف.

صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠١١.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المَصْنَف، الإصدار ٤.٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

٧

٩

١٩

٢٩

٣٩

٤٥

مُقَدِّمَةٌ

الفصلُ الأوَّلُ

الفصلُ الثَّانِي

الفصلُ الثَّالِثُ

الفصلُ الرَّابِعُ

خَاتِمَةُ الْقِصَّةِ

مُقَدِّمَةٌ

أَيُّهَا الْقَارِئُ الصَّغِيرُ:

هَذِهِ هِيَ الْقِصَّةُ الثَّالِثَةُ مِنْ قِصَصِ «شَكْسِير» الَّتِي وَعَدْتُكَ بِاقْتِبَاسِهَا (أَخِذْ خُلَاصَتَهَا) وَتَقْدِيمِهَا إِلَيْكَ.

وَقَدْ دَأَبْتُ عَلَى خُطَّتِي (سَرْتُ عَلَى طَرِيقَتِي) مَعَكَ فِي الْعِنَايَةِ بِاخْتِيَارِ أَحْسَنِ الْقِصَصِ، وَأَكْثَرِهَا رَوْعَةً وَجَمَالًا. كَمَا دَأَبْتُ عَلَى الرِّوَايَةِ وَالتَّمَهُّلِ وَالتَّدْبِيرِ فِي صَوْنِهَا وَتَنْسِيقِهَا. وَكُلِّي ثِقَةً فِي أَنَّ تَجَرِّيَ مَعِيَ عَلَى سَجِيَّتِكَ (طَبِيعَتِكَ) فِي إِمْعَانِ الْفِكْرِ وَتَذْقِيقِ النَّظَرِ فِيمَا تَقْرَأُ، وَإِطَالَةِ الرِّوَايَةِ فِي فَهْمِ مَا أَقْصُهُ عَلَيْكَ.

وَهَذِهِ الْقِصَّةُ — كَسَابِقَتَيْهَا — تَشْرَحُ لَكَ مِنْ دَقَائِقِ الْحَيَاةِ، وَأَسْرَارِ النُّفُوسِ مَا أَنْتَ فِي أَشَدِّ الْحَاجَةِ إِلَى تَعْرِفِهِ، لِتَسْتَنِيرَ لَكَ السَّبِيلُ؛ فَنَمْشِي عَلَى هُدًى.

وَلَنْ تَجِدَ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ التَّارِيخِيَّةِ الْمُعْجَبَةِ إِلَّا مَا يَرُوعُكَ وَيَفْتِنُكَ؛ إِذْ تَتَمَثَّلُ لَكَ فِيهَا: عَاقِبَةُ الْحَسَدِ، وَمَغَبَّةُ الْحَقْدِ، وَآخِرَةُ الْعَذْرِ. وَسَتَرَى: كَيْفَ تَنْتَهِي هَذِهِ الْخِلَالُ بِالْوَبَالِ عَلَى أَصْحَابِهَا، وَتُنْزِلُهُمْ — مِنْ أَسْمَى دَرَجَاتِ الْمَجْدِ — إِلَى أَحَطِّ دَرَكَاتِ الْمَهَانَةِ وَالشَّقَاءِ، وَأَسْفَلِ مَنَازِلِ الْهُوَانِ وَالذُّلِّ.

سَتَرَى مُصْداقَ هَذَا (تَلَمُّسُ الدَّلِيلِ عَلَى صِدْقِهِ)، وَتَعْرِفُ كَيْفَ يَنْتَصِرُ الْحَقُّ — آخِرُ الْأَمْرِ — وَيَخْفِقُ عُلْمُهُ (تَهْتَرُ رَايَتُهُ)، ثُمَّ يَلْقَى الْإِيْمُونَ مَا هُمْ أَهْلُ لَهُ مِنْ الْعِقَابِ وَالتَّنْكِيلِ، جَزَاءً وَفَاقًا لِمَا اقْتَرَفُوهُ مِنْ إِثْمٍ، وَارْتَكَبُوهُ مِنْ عُدْوَانٍ.

يُولْيُوسَ قَيْصَرَ

وَهَآنَذَا أَتْرُكُ الْحَدِيثَ لـ«شِكْسْبِير»؛ فَهُوَ خَيْرُ مَنْ يُحَدِّثُكَ أَطْيَبَ الْحَدِيثِ، وَأَقْدَرُ
مَنْ يَقُصُّ عَلَيْكَ أَبْدَعَ الْقَصَصِ.

الفصل الأول

(١) فَاتِحَةُ الْقِصَّةِ

وَقَعَتْ حَوَادِثُ هَذِهِ الْقِصَّةِ الْعَجِيبَةِ قَبْلَ الْمِيلَادِ بِأَرْبَعٍ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً، فِي شَهْرِ مَارِسَ. أَغْنِي: أَنَّهَا كَانَتْ قَبْلَ وَلَادَتِكَ — أَيُّهَا الْقَارِئُ الصَّغِيرُ — بِالْفَيِّ عَامٍ إِلَّا قَلِيلًا. تَسْأَلُنِي: فِي أَيِّ مَكَانٍ وَقَعَتْ تِلْكَ الْحَوَادِثُ الْغَرِيبَةُ الَّتِي أَقْصَاهَا عَلَيْكَ؟ فَأَعْلَمْ — عَلِمْتَ الْخَيْرَ — أَنَّهَا وَقَعَتْ فِي مَدِينَةِ «رُومَةَ» عَاصِمَةِ إِيْطَالِيَا، وَمَهْدِ حَضَارَةِ الرُّومَانِ (الْمَوْضِعِ الَّذِي نَشَأْتُ فِيهِ).

(٢) بَهْجَةُ الْعِيدَيْنِ

وَكَانَتْ مَدِينَةُ «رُومَةَ» — فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ — تَسْتَقْبِلُ عِيدَيْنِ، وَتَبْتَهِجُ لِمُنَاسَبَتَيْنِ. أُولَاهُمَا: عِيدُ عَامٍ، تَحْتَفِلُ فِيهِ الْبِلَادُ فِي مِثْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنْ كُلِّ عَامٍ، وَيَتَبَارَى فِيهِ السَّبَاقُونَ وَالْعِدَاءُونَ (الْجَارُونَ عَلَى أَقْدَامِهِمْ) وَمَنْ إِلَيْهِمْ. وَالثَّانِيَّةُ: عِيدُ خَاصٍّ، أَتَاحَتْهُ فُرْصَةٌ بَعِيْنَهَا، تِلْكَ هِيَ أَنَّ «يُولْيُوسَ قَيْصَرَ» — بَطَلَ هَذِهِ الْقِصَّةِ الشَّائِقَةِ الْمُعْجَبَةِ، وَرَعِيمَ الرُّومَانِ الْأَوْحَدِ — عَادَ إِلَى وَطَنِهِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مُنْتَصِرًا عَلَى أَعْدَائِهِ، بَعْدَ أَنْ حَارَبَهُمْ، وَشَتَّتَ جُمُوعَهُمْ، وَشَرَّدَ جَيْوشَهُمْ كُلَّ تَشْرِيدٍ، وَنَكَلَ بِهِمْ أَشَدَّ تَنْكِيلٍ، وَأَنْزَلَ بِهِمُ الْمَصَائِبَ وَالنَّكَبَاتِ الْفَادِيحَةَ.

(٣) خُصُومٌ «قَيْصَرُ»

وَكَانَتْ جَمَهْرَةُ الْبِلَادِ، وَسَوَادُ الشَّعْبِ، يَسْتَقْبِلُونَ هَذَيْنِ الْعِيدَيْنِ فَرِحِينَ مَسْرُورِينَ؛ فَرَفَعُوا الْأَعْلَامَ، وَزَيَّنُوا الْمَدِينَةَ بِطَاقَاتِ الْأَزْهَارِ وَالرِّيَاحِينَ، وَانْتَشَرُوا فِي الطُّرُقَاتِ؛ فَغَصَّتْ بِجُمُوعِهِمُ الْمَيَادِينُ — عَلَى رَحِيهَا — وَامْتَلَأَتْ حَتَّى ضَاقَتْ بِوُفُودِ الْمُسْتَقْبِلِينَ الْمُبْتَهِجِينَ. وَلَمْ يَشُدَّ عَنْهُمْ — فِي هَذَا الْفَرَحِ الشَّامِلِ — إِلَّا فِتْنَةٌ قَلِيلُونَ مِنْ حُسَادِ «قَيْصَرٍ» وَمُنَافِسِيهِ، إِذْ كَانُوا لَا يُطِيقُونَ أَنْ يَسْمَعُوا بِانْتِصَارِهِ، وَلَا تَقْرُ نُفُوسُهُمُ الْوَضِيعَةَ (لَا تَطْمَئِنُّ وَلَا تَهْدَأُ) إِلَّا بِانْكِسَارِهِ وَانْدِحَارِهِ!

وَمَا عَرَفَ هَؤُلَاءِ الْحُسَادُ مَوْعِدَ قُدُومِ «قَيْصَرِ» الْمُنتَصِرِ، حَتَّى اشْتَعَلَتْ بِالْحِقْدِ قُلُوبُهُمْ، وَاضْطَرَمَّتْ بِالْغَيْظِ نُفُوسُهُمْ (الْتَهَبَتْ)، وَوَدُّوا لَوْ قَدَرُوا عَلَى أَنْ يُبَدِّلُوا بِهَذَا الصَّفْوِ كَدْرًا، وَيُحَوِّلُوا هَذِهِ الْأَعْرَاسَ الْمَعْقُودَةَ (الْمُهَيَّاةَ الْمُنْصُوبَةَ) إِلَى مَاتِمٍ وَمَنَاحَاتٍ.

(٤) الْحَاسِدَانِ

وَاشْتَدَّ الْحِقْدُ وَالْغَيْظُ بِرَجُلَيْنِ مِنْ خُصُومِ «قَيْصَرٍ»، فَأَعْمِيَاهُمَا عَنْ سَبِيلِ الرُّشْدِ، وَطَوَّحَا بِهِمَا فِي هَاوِيَةِ مِنَ الضَّلَالِ وَالْعَيِّ!

وَكَانَ اسْمُ أَوَّلِهِمَا: «فَلْفَيَاسُ»، وَاسْمُ الْآخَرِ: «مَرْلَاسُ».

فَخَرَجَا يَغْتَرِضَانِ الْجُمُوعَ الْمُتَدَفِّقَةَ الْمُتَدَفِّعَةَ مِنَ النَّاسِ، لِيَصْدَاهُمَ عَنْ مَظَاهِرَاتِهِمْ، وَيَمْنَعَاهُمَ مِنْ لِقَائِهِمْ لـ «قَيْصَرٍ».

فَصَاحَ أَوَّلُهُمَا فِي أَحَدِ الْجُمُوعِ: «عَلَامَ تَتَجَمَّعُونَ؟ وَلِمَاذَا تَمْرَحُونَ؟ وَلَآيِي دَاعِيَةٍ تَرَكْتُمْ أَعْمَالَكُمْ، وَانْصَرَفْتُمْ إِلَى الْبِطَالَةِ وَاللَّهْوِ؟»

(٥) جَوَابُ النَّجَارِ

وَكَانَ عَلَى رَأْسِ جُمُوعِ النَّاسِ قَائِدَانِ. فَالْتَفَتَ إِلَى أَحَدِهِمَا «مَرْلَاسُ» — أَحَدُ الرَّجُلَيْنِ: «عَدُوِّي «قَيْصَرُ» — وَقَالَ لَهُ: «مَا صِنَاعَتُكَ، أَيُّهَا الرَّجُلُ؟»



فَقَالَ لَهُ: «أَنَا — يَا سَيِّدِي — نَجَّارٌ».
 فَصَاحَ فِيهِ «مَرَّلَاسُ»: «كَيْفَ هَجَزْتَ عَمَلَكَ؟ وَلِمَذَا ارْتَدَيْتَ أَفْخَرَ ثِيَابِكَ؟ أَلَا قُبْحًا لَكَ
 وَتَعَسًا (شَقَاءً وَهَلَاكًا)».

(٦) حِوَارُ الْإِسْكَافِ

ثُمَّ التَفَتَ «مَرَّلَاسُ» إِلَى الْقَائِدِ الْآخَرَ، وَسَأَلَهُ مُغْضَبًا: «وَأَنْتَ: مَا شَأْنُكَ؟ وَأَيُّ حِرْفَةٍ تَحْتَرِفُ؟»
 فَقَالَ لَهُ: «أَنَا إِسْكَافٌ، يَا سَيِّدِي ... أَرْقُعُ النَّعَالَ الْقَدِيمَةَ، وَأُصْلِحُهَا، كَمَا يُصْلِحُ
 الطَّبِيبُ الْأَجْسَامَ الْمَرِيضَةَ. فَأَنَا أَشْفِي النَّعَالَ مِنَ الْهَلَاكِ، وَأَرُدُّ إِلَيْهَا الْحَيَاةَ ثَانِيَةً ...!»
 فَقَالَ لَهُ «فَلَفَيَّاسُ» — زَمِيلُ «مَرَّلَاسُ» — مُغْتَاظًا: «وَمَا بِأَنَّكَ تُزَعِّمُ عَلَى هَذَا الْجَمْعِ

الْحَاشِدِ (تَجْعَلُ نَفْسَكَ زَعِيمًا عَلَيْهِ)، وَتَطُوفُ بِهِ فِي الطَّرِيقَاتِ وَالْمِيَادِينِ؟»
 فَقَالَ لَهُ الْإِسْكَافُ مُجِيبًا: «لَأَنَّ فِي ذَلِكَ فَائِدَتَيْنِ: الْأُولَى: أَنَّ أُتْلِيَ نِعَالُ الْمُتَجَمِّعِينَ؛
 فَيُضْطَرُّوا إِلَى إِصْلَاحِهَا عِنْدِي؛ فَأَكْسِبُ بِذَلِكَ مَالًا. وَالثَّانِيَةُ: أَنَّ أَظْفَرَ بَرُوءِيَةِ «قَيْصَرَ»
 الْمُؤْتَصِّرِ الْمَحْبُوبِ، وَأَمَلًا نَاطِرِي بِوَجْهِهِ الْمُشْرِقِ الْوَضَاحِ ...»
 فَصَاحَ فِيهِ «مَرَّلَاسُ» حَانِقًا (غَاضِبًا): «وَأَيُّ انْتِصَارٍ أَحْرَزَهُ «قَيْصَرُ»؟ وَأَيُّ غَنَمٍ نَالَه؟
 وَأَيُّ فَائِدَةٍ عَادَ بِهَا إِلَى بِلَادِهِ؟»

(٧) خُطَابُ «مَرْلَاسْ»

ثُمَّ وَقَفَ يَخْطُبُ الْجُمْهُورَ مُهْتَاجًا غَاظِبًا:

«الْوَيْلُ لَكُمْ، أَيُّهَا الْقَوْمُ! أَنْسَيْتُمْ حَفَاوَتَكُمْ وَاهْتِمَامَكُمْ — مِنْ قَبْلُ — بِخُصُومِ
«قَيْصَرَ»؟ أَلَمْ تَهْتَفُوا — قَبْلَ الْيَوْمِ — لِقَائِدِكُمْ وَرَعيكُمْ «بُمْبِي»؟ أَلَمْ تَمْلَأُوا
لَهُ الْجَوَّ بِصِيَاحِكُمْ فَرَحِينَ مُهْلَلِينَ؟ أَلَمْ تَفْعَمْ قُلُوبَكُمْ غَبْطَةً وَسُرُورًا، بِانْتِصَارِهِ
وَفَوْزِهِ عَلَى أَعْدَاءِ الْوُطَنِ؟ فَمَا بِالْكُمْ تَجْتَمِعُونَ — الْيَوْمَ — لِتُحْيُوا خَصْمَهُ؟ مَا
بَالْكُمْ تَبْتَهِجُونَ بِانْتِصَارِ «قَيْصَرَ» عَلَيْهِ؟ أَلَا مَا كَانَ أَجْدَرَكُمْ بِالْبُكَاءِ وَالْعَوِيلِ،
بَدَلًا مِنَ الْفَرَحِ وَالسُّرُورِ!

عُودُوا أَدْرَاكِكُمْ (ارْجِعُوا مِنْ حَيْثُ أَتَيْتُمْ)، وَاسْتَغْفِرُوا لِذُنُوبِكُمْ، وَانْهَبُوا —
سِرَاعًا — إِلَى ضِفَّةِ نَهْرِ «التَّيْبِر»، فَادْرِفُوا فِي مِيَاهِهِ عَبْرَاتِكُمْ، وَأَسِيلُوا دُمُوعَكُمْ،
ثُمَّ ارْجِعُوا وَاجْمَعُوا أَصْحَابَكُمْ، وَأَقِيمُوا الْمُنَاحَاتِ مَكَانَ الْأَعْرَاسِ!»

(٨) عِقَابُ الْخَاسِدِينَ

وَلَمْ يَكْتَفِ «مَرْلَاسْ» وَصَاحِبُهُ بِتَشْتِيتِ هَذَا الْجَمْعِ، بَلْ أَمْعَنَا فِي الْكَيْدِ، وَرَاحَا يَرْفَعَانِ
الْأَزْهَارَ وَالرَّيَاحِينَ مِنْ أَمَاكِنِهَا، وَيَجَرِّدَانِ التَّمَاثِيلَ وَالنُّصَبَ (الْأَعْلَامَ الْمَنْصُوبَةَ) الْمَحَلَّةَ
بِهَا؛ حَتَّى لَا يَرَى الْقَيْصَرُ — فِي طَرِيقِهِ — شَيْئًا مِنْ مَظَاهِرِ التَّكْرِيمِ لَهُ، وَالْحَفَاوَةِ بِهِ.
وَقَدْ بَدَلَا جُهْدَيْهِمَا فِي تَحْقِيقِ فِكْرَتَيْهِمَا الْإِثْمَةِ؛ وَلَكِنَّهُمَا عَجَزَا جَمِيعًا عَنْ صَدِّ الْجُمُوعِ
الْمُتَدَفِّقَةِ الْأُخْرَى. وَلَقِيََا عِقَابَ تِلْكَ الْجُرْأَةِ الْخَرَقَاءِ (الْحَمَقَاءِ)، فَكَلَّ بِهَمَا أَنْصَارُ «قَيْصَرَ»
وَجَرَّدُوهُمَا مِمَّا أَحْرَزَاهُ مِنَ النِّيَابَةِ (الْعُضُويَّةِ فِي الْبَرْلَمَانِ) وَالْقَابِ الشَّرَفِ.

(٩) نِدَاءُ الْعَرَافِ

وَجَاءَ «قَيْصَرُ»، فَلَقِيَ مِنْ حَفَاوَةِ الْأَهْلِينَ وَابْتِهَاجِ الشَّعْبِ، مَا يَجْدُرُ بِأَمثَالِهِ مِنْ كِبَارِ الْغُرَاةِ
وَالْفَاتِحِينَ.

وَذَهَبَ «قَيْصَرُ» مُيَمَّمًا حَلْبَةَ السَّبَاقِ (قَاصِدًا مَيْدَانَهُ)، وَحَوْلَهُ رَهْطٌ مِنْ أَصْحَابِهِ
(جَمَاعَةٌ مِنْ حَاشِيَتِهِ). وَصَدَحَتِ الْمَوْسِيقَى، وَفَاضَ الْفَرْحُ وَالْإِبْتِهَاجُ عَلَى قُلُوبِ الْحَاضِرِينَ
جَمِيعًا.

وَرَدَّ — فِي أَجَوَازِ الْفَضَاءِ (نَوَاحِيهِ) — صَوْتُ عَالٍ يُنَادِي الْقَيْصَرَ. فَقَالَ «قَيْصَرُ»:
«مَنْ ذَا يُنَادِينِي؟»

فَسَادَ صَمْتُ عَمِيقٍ، وَكَفَّتِ الْمَوْسِيقَى، وَاشْرَأَبَتِ الْأَعْنَاقُ (تَطَاوَلَتْ)، وَأَرْهَفَتِ الْأَذَانُ.
وَإِذَا بِصَوْتِ الْمُنَجِّمِ يَدْوِي فِي الْفَضَاءِ، مَرَّةً أُخْرَى (وَالْمُنَجِّمُ هُوَ الَّذِي يَدْعِي مَعْرِفَةَ
الْمُسْتَقْبَلِ، وَيَزْعُمُ أَنَّ النُّجُومَ تُرْشِدُهُ إِلَى ذَلِكَ). وَإِذَا الْمُنَجِّمُ يَقُولُ: «حَذَارٍ — أَيُّهَا الْقَيْصَرُ
— مِنْ مُنْتَصَفِ مَارِسٍ!»

فَسَأَلَ «قَيْصَرُ» مَنْ حَوْلَهُ عَنْ هَذَا الرَّجُلِ. فَقَالَ لَهُ صَدِيقُهُ «بُرُوتَسُ»: «إِنَّهُ عَرَّافٌ
(مُخْبِرٌ عَنِ الْغَيْبِ)، يُحَذِّرُكَ مُنْتَصَفَ هَذَا الشَّهْرِ!» فَاسْتَدْعَاهُ «قَيْصَرُ» إِلَيْهِ، وَسَأَلَهُ عَمَّا
يَقُولُ؛ فَأَعَادَ عَلَيْهِ الْعَرَّافُ قَوْلَهُ: «حَذَارٍ مُنْتَصَفِ مَارِسٍ!»

فَهَزَى بِهِ «قَيْصَرُ»، وَقَالَ لَهُ سَاحِرًا: «مَا أَرَاكَ إِلَّا حَالِمًا قَدْ تَمَلَّكَ الْوُحْمُ، وَاسْتَوَلَى
عَلَيْكَ الْخَبَالُ...»

ثُمَّ ذَهَبَ «قَيْصَرُ» وَشِيعَتُهُ، لِيَشْهَدُوا حَلْبَةَ السَّبَاقِ.

(١٠) حِوَارُ الصَّدِيقَيْنِ

وَبَقِيَ «كَسْيَاسُ» وَ«بُرُوتَسُ» فِي مَكَانِهِمَا. فَقَالَ أَوْلُهُمَا لِصَاحِبِهِ، وَهُوَ يُحَاوِرُهُ: «أَرَاكَ بَاقِيًا
حَيْثُ أَنْتَ، فَهَلِ اعْتَزَمْتَ أَلَّا تَحْضُرَ حَفْلَ السَّبَاقِ الْمُقَدَّسِ فِي هَذَا الْيَوْمِ؟»

فَقَالَ لَهُ «بُرُوتَسُ»: «إِنِّي لَا أَنْشَطُ لِمِثْلِ هَذِهِ الْأَلَاعِيبِ الْفَارِغَةِ، وَلَا أَحْسُ رَغْبَةً فِي
حُضُورِهَا.»

فَقَالَ لَهُ «كَسْيَاسُ»: «حَسَنًا تَفْعَلُ، أَيُّهَا الصَّدِيقُ الْحَمِيمُ (الْقَوِيُّ الصَّدَاقَةُ). وَمَا أَرَاكَ
إِلَّا رَاشِدًا فِيمَا تَقُولُ. وَلَكِنْ أَتَأَذِّنُ لِي فِي مُجَاهَرَتِكَ (إِخْبَارِكَ صَرَاحَةً) بِمَا يَجُولُ فِي نَفْسِي
(يَدُورُ بِخَاطِرِي) مِنَ الْعُتْبِ عَلَيْكَ، أَيُّهَا الصَّدِيقُ؟»

فَقَالَ لَهُ «بُرُوتَسُ»: «جَاهِرْنِي بِمَا تَشَاءُ؛ فَلَيْسَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ حَدِيثِكَ.» فَقَالَ
«كَسْيَاسُ»: «أَحَقُّ مَا تَقُولُ، أَيُّهَا الصَّدِيقُ؟ لَقَدْ أُدْخِلَ فِي رُوعِي (وَقَعَ فِي قَلْبِي) أَنَّكَ

قَدْ أَصْبَحْتَ — فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ — مُتَنَكِّرًا لِي ... وَقَدْ حَالَ وَدَاكَ (تَغَيَّرَ)، وَاعْبَرَّ صَفَاؤُكَ (تَكَدَّرَ)؛ فَأَصْبَحْتَ عَابِسَ الْوَجْهِ، قَاسِيَ النَّظَرَاتِ، جَافًا الْأَلْفَافِ!«
فَقَالَ لَهُ «بُرُوتُسُ»: «مَا أَرَاكَ إِلَّا وَاهِمًا فِيمَا ذَهَبَتْ إِلَيْهِ؛ فَإِنَّ أَحْزَانِي الدَّفِينَةَ لَا تَدْعُ لِي مَجَالًا لِلِابْتِسَامِ. وَلَكِنَّ تَقَتِي بِإِخْوَانِي، وَوَفَائِي لَهُمْ، لَمْ يَتَغَيَّرَا قَطُّ عَلَى كُلِّ حَالٍ.»

(١١) شَكْوَى «كَسْيَاسِ»

فَقَالَ لَهُ «كَسْيَاسُ»: «لَقَدْ ابْتَهَجْتَ نَفْسِي لِمَا تَقُولُ. وَلَكِنَّ أَلَمًا أُرِيدُ أَنْ أَبْنِئَكَ إِيَّاهَا، وَأُطْلِعَكَ عَلَيْهَا: إِنَّ الْمَظَالِمَ قَدْ أَفْعَمَتْ قُلُوبَنَا أَسَى وَحُزْنًا. وَلَقَدْ أَجْمَعَ سَرَاةُ «رُومَةَ» (كُبْرَاؤُهَا وَأَعْيَانُهَا) عَلَى أَنَّكَ وَحْدَكَ زَعِيمُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَمَنَاطُ رَجَائِهَا، وَمَوْضِعُ أَمَلِهَا. كَمَا أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّكَ — لَوْ عَرَفْتَ حَقِيقَةَ نَفْسِكَ — قَادِرٌ بِمُفْرَدِكَ عَلَى تَفْرِيجِ كُرْبَةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَكَشْفِ مَا تَعَانِيهِ مِنْ ضَائِقَةٍ وَحِيفٍ (ظَلَمٍ وَإِرْهَاقٍ)، وَتَكْلِيفٍ بِمَا لَا يُطَاقُ.» فَقَالَ لَهُ «بُرُوتُسُ» وَاجِمًا: «إِنَّكَ لَتُكْثِرُ مِنْ أَمْرِي مَا صَغُرَ، وَتُعْظِمُ مِنْ شَأْنِي مَا حَقُرَ. وَمَا أَرَاكَ — أَيُّهَا الصَّدِيقُ الْحَمِيمُ — إِلَّا مُورِدِي مَوَارِدِ الْهَلَاكِ (لَا أَظُنُّكَ إِلَّا ذَاهِبًا بِي مَذَاهِبِ الْمَوْتِ).»
فَقَالَ «كَسْيَاسُ»: «مَا أَجْدَرَنِي أَنْ تُخْلِدَ (تَرْكَنَ) إِلَيَّ بِثِقَتِكَ. فَلَسْتُ إِلَّا مِرَاةَ نَفْسِكَ. وَمَا أَنَا بِكَادِبِكَ الْقَوْلِ؛ فَأَنْتَ أَعْرَفُ النَّاسِ بِصَدْقِي وَإِيثَارِي (اخْتِيَارِي) الْجَدِّ، وَبُعْدِي عَنِ الرِّيَاءِ وَالنِّفَاقِ وَالتَّمَلُّقِ. فَإِذَا قُلْتُ لَكَ: إِنَّكَ مَنَاطُ رَجَاءِ أُمَّتِكَ، فَلَسْتُ فِي هَذَا إِلَّا مُقَرَّرًا الْحَقِيقَةَ الْخَالِصَةَ، الَّتِي لَا يَشُوبُهَا أَقْلٌ رَيْبٍ (لَا يَخْتَلِطُ بِهَا أَيُّ شَكٍّ).»
فَقَالَ «بُرُوتُسُ»: «إِنَّنِّي أَبْذُلُ آخِرَ قَطْرَةٍ مِنْ دَمِي فِي سَبِيلِ الْوَطَنِ. وَمَتَى دَعَانِي دَاعِي الْوَاجِبِ لَبَيْتُهُ مُسْرِعًا فَرِحًا، وَتَسَاوَى فِي نَظَرِي الْمَوْتُ وَالْحَيَاةُ.»

(١٢) حِفْدُ «كَسْيَاسِ»

فَقَالَ «كَسْيَاسُ»: «عَلِمَ اللَّهُ أَنَّني مَا شَكَّكَتُ — لَحْظَةً وَاحِدَةً — فِي صَدْقِ عَزِيمَتِكَ، وَكَرَمِ نَفْسِكَ، وَإِجْلَالِكَ لَوْطَنِكَ. وَلَقَدْ حَفَرْتُنِي تِلْكَ الْخِلَالُ الْكَرِيمَةُ (دَفَعْتَنِي تِلْكَ الْأَخْلَاقُ النَّبِيلَةُ) الَّتِي عَرَفْتُهَا فَيْكَ، إِلَى مُجَاهَرَّتِكَ بِهَذَا الْحَدِيثِ: «لَقَدْ وَلَدْنَا — يَا أَخِي — أَحْرَارًا كَمَا وَلَدَ «قَيْصَرُ»، وَلَنَا مِثْلُ مَوَاهِبِهِ وَقُدْرَتِهِ وَمَرَايَاهُ، إِنْ لَمْ نَرْجَحْهُ وَنَزِدْ عَلَيْهِ.»

وَلَقَدْ أَنْقَذْتَهُ — ذَاتَ مَرَّةٍ — مِنَ الْغَرَقِ، بِقُوَّةِ سَاعِدِي، وَكَادَ يَهْلِكُ لَوْلَا مُسَاعَدَتِي. وَمَا أَدْرِي: كَيْفَ وَصَلَ هَذَا الرَّجُلُ إِلَى ذُرْوَةِ الْمَجْدِ وَالزَّعَامَةِ، وَبَلَغَ أَعْلَى مَكَانٍ فِيهِمَا، وَأَصْبَحَ الشَّعْبُ يَقْدِّسُهُ، وَأَصْبَحْتُ أَنَا — بِالْقِيَاسِ إِلَيْهِ — عَبْدًا ذَلِيلًا، أَنْحِي أَمَامَهُ، وَلَا أَجْرُو عَلَى مُخَالَفَةِ إِشَارَتِهِ؟ ...

لَقَدْ شَهِدْتُ هَذَا الرَّجُلَ يَشْكُو آلامَ الْحُمَى فِي «إِسْبَانِيَا»، وَرَأَيْتُهُ يَتَأَوَّهُ مِنْ آلامِ الْمَرَضِ كَمَا يَتَأَوَّهُ الْأَطْفَالُ، وَيَبْنُ كَمَا يَبْنُ الْعَجْزَةُ. وَهَذَا أَرَى ضَعْفَهُ يَتَحَوَّلُ إِلَى قُوَّةٍ، وَعَجْزُهُ يَصِيرُ إِلَى قُدْرَةٍ، وَأَرَاهُ يَبْطِشُ بِالْأَقْوِيَاءِ، وَيَفْتِكُ بِالْقَادَةِ، وَيُطِيحُ بِالْأَبْطَالِ وَالزُّعَمَاءِ (يُفْنِيهِمْ وَيُهْلِكُهُمْ). وَمَا أَرَانَا إِلَّا جَدِيرَيْنِ بِالْمَهَانَةِ وَالْإِحْتِقَارِ، مَا دُمْنَا نَتْرُكُ لَهُ الْحَبْلَ عَلَى الْغَارِبِ، وَنَدْعُهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، وَلَا نَقْفُهُ عِنْدَ حَدِّهِ. وَمَا أَدْرِي — وَاللَّهِ — كَيْفَ أُتِيحَ لَهُ كُلُّ ذَلِكَ التَّوْفِيقِ؟ وَأَيُّ رَنْبٍ فِي اسْمِهِ قَدْ خَلَبَ أَلْبَابَ الشَّعْبِ (سَحَرَهَا)، وَفَتَنَ عُقُولَ الْجُمْهُورِ؟ اكْتُبْ اسْمَكَ وَاسْمَهُ فِي سَطْرِ وَاحِدٍ: «بُرُوتَسْ» وَ«قَيْصَرُ»، وَأَنْطِقْ بِهِمَا جَمِيعًا، وَوَارِزِ بَيْنَ أَحْرَفِهِمَا، فَهَلْ تَرَى أَحَدَهُمَا يَقِلُّ عَنِ الْآخَرِ عُذُوبَةً فِي اللَّفْظِ، وَرَنْبِيًا فِي الْأُذُنِ؟

وَمَا زَالَ «كَسْيَاسُ» مُتَفَنِّيًا فِي ضُرُوبِ الْكَيْدِ لِقَيْصَرٍ، مُتَمَدِّحًا بِخِلَالِ «بُرُوتَسْ» وَمَزَايَاهُ، حَتَّى هَاجَهُ وَأَوْغَرَ صَدْرَهُ (أَشْعَلَهُ غَيْظًا) عَلَى صَدِيقِهِ الْحَمِيمِ «قَيْصَرٍ»، وَحَفَزَهُ إِلَى الْفَتْكِ بِهِ، وَالْإِنْتِقَامِ مِنْهُ.

(١٣) عَوْدَةُ «قَيْصَرٍ»

وَلَمَّا عَادَ «قَيْصَرُ»، لَمَحَ «كَسْيَاسُ» وَهُوَ يُحَادِثُ «بُرُوتَسَ»؛ فَهَمَسَ «قَيْصَرُ» فِي أُذُنِ رَفِيقِهِ الْوَفِيِّ «أَنْطُونْيُوسَ»: «مَا أَعْجَبَ هَذَا الرَّجُلَ الْخَطِيرَ، وَمَا أَشَدَّ دَهَاءَهُ، وَأَعْظَمَ مَكْرَهُ، وَمَا أَقْبَحَ نَظَرَاتِهِ، وَأَكْثَرَ هَوَاجِسِهِ (خَوَاطِرَ نَفْسِهِ)!»

فَقَالَ لَهُ «أَنْطُونْيُوسُ»: «لَا عَلَيْكَ، وَلَا يَسُوكَ هَذَا، فَهُوَ — يَا سَيِّدِي — طَيِّبُ الْقَلْبِ، كَرِيمُ الْأَصْلِ».

فَقَالَ «قَيْصَرُ»: «إِنَّ «قَيْصَرَ» لَا يَخْشَى كَائِنًا كَانَ؛ وَلَوْ أَنَّ «قَيْصَرَ» يَخْشَى أَحَدًا مِنَ النَّاسِ، لَكَانَ هَذَا الرَّجُلُ وَحْدَهُ مَصْدَرُ خَوْفِهِ. أَلَا تَرَاهُ شَاجِبَ الْوَجْهِ، مَهْزُولَ الْجِسْمِ، كَثِيرَ الْإِطْرَاقِ، دَائِمَ التَّفَكُّيرِ، يَكَادُ لَا يَبْتَسِمُ؟ شَدَّ مَا تَدَّهَشُنِي غَرَابَةُ أَطْوَارِهِ (أَحْوَالِهِ)، وَعَمَقُ نَظَرَاتِهِ! وَمَا أَظُنُّ «كَسْيَاسَ» هَذَا يَرْتَاحُ لَهُ بَالٌ، وَيَهْدَأُ لَهُ خَاطِرٌ، أَوْ يَطْفَرُ

بِرُتْبَةِ الزَّعَامَةِ، وَيَنَالُ غَايَةَ الْمَجْدِ. وَمَا أَرَاهُ يَظَلُّ لَيْلَهُ إِلَّا مُورِّقًا (سَاهِرًا مَهْمُومًا)؛ لِأَنَّ فِي رُومَةٍ رَجُلًا أَرْفَعُ مِنْهُ مَنْصِبًا، وَأَعْلَى مَكَانَةً، وَأَعْظَمَ جَاهًا.»

(١٤) حَدِيثُ «كَسْكَا»

ثُمَّ خَرَجَ «قَيْصَرُ» وَحَاشِيئُهُ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِلَّا «كَسْكَا». وَكَانَ «كَسْيَاسُ» قَدْ جَذَبَ فَضْلَ رِدَائِهِ (طَرَفَ ثَوْبِهِ)، لِيَحْجُزَهُ مَعَهُ قَلِيلًا، ثُمَّ سَأَلَهُ عَمَّا حَدَثَ فِي حَفْلَةِ السَّبَاقِ. وَكَانَ «كَسْكَا» يَمُقْتُ «قَيْصَرَ» أَشَدَّ الْمُقْتِ، وَيُبْغِضُهُ أَشَدَّ الْبُغْضِ؛ فَرَأَحَ يَقْصُصُ عَلَى «كَسْيَاسَ» وَ«بُرُوتَسَ» — بَعَيْنِ الْحَاقِدِ الْمَغِيْظِ الْمُحْنَقِ — مَا رَأَاهُ فِي تِلْكَ الْحَفْلَةِ، وَيَقُولُ لَهُمَا: «إِنَّهَا كَانَتْ أَشْبَهَ شَيْءٍ بِقِصَّةِ تَمْثِيلِيَّةٍ سَخِيفَةٍ. فَقَدْ عَرَضَ «أَنْطُونْيُوسُ» التَّاجَ عَلَى صَدِيقِهِ «قَيْصَرَ» — عَلَى مَرَأَى مِنَ النُّظَارَةِ (الْمُشَاهِدِينَ) — فَرَفَضَهُ «قَيْصَرُ» مُتَّظَاهِرًا بِالزُّهْدِ فِي كُلِّ مَرَّةٍ. وَقَدْ خُدِعَ الْحَاضِرُونَ، فَصَفَّقُوا لِذَلِكَ التَّمْثِيلِ، وَقَذَفَ الْعَامَّةُ بِقَلَانِسِهِمْ (أَغْطِيَةٍ رُءُوسِهِمْ)، وَتَعَالَتْ صَيْحَاتُهُمْ سُورًا.»

ثُمَّ خَرَجَ «كَسْكَا»، بَعْدَ أَنْ لَعَنَ «قَيْصَرَ»، وَحَقَّرَ مِنْ أَمْرِهِ مَا شَاءَ لَهُ حِقْدُهُ. وَكَانَ «كَسْيَاسُ» يُحِبُّ قَوْلَهُ، حَتَّى امْتَلَأَتْ نَفْسُ «بُرُوتَسَ» حِقْدًا عَلَى صَدِيقِهِ «قَيْصَرَ»، وَكَرَاهِيَةً لَهُ. وَخَرَجَ «بُرُوتَسُ» عَلَى أَنْ يَلْتَقِيَ «كَسْيَاسَ» فِي دَارِهِ، فِي فَجْرِ الْغَدِ.

(١٥) لَيْلَةُ هَائِلَةٍ

وَقَدْ التَّقَى «شَشِيرُونُ» صَدِيقَهُ «كَسْكَا»، فَرَأَاهُ يَزْعُدُ وَيُزْمَجِرُ وَيَهِيْجُ غَاضِبًا، وَقَدْ شَهَرَ فِي يَدِهِ حُسَامَهُ (سَلَّ سَيْفَهُ)؛ فَسَأَلَهُ «شَشِيرُونُ»: «أَيُّ خَطْبٍ أَفْرَعَكَ؟ وَأَيُّ أَمْرٍ خَوَّفَكَ؟»

فَقَالَ لَهُ «كَسْكَا»: «لَقَدْ رَأَيْتُ مِنَ الْمُفْرَعَاتِ الْمَاضِيَةِ وَالْأَحْدَاثِ وَالشُّنُونِ مَا لَا يَخْطُرُ عَلَى بَالٍ، وَشَهِدْتُ هِيَاجَ الْبَحْرِ، وَاصْطِحَابَ الْأَمْوَاجِ (اضْطِرَابَهَا)، وَتَوَرَّةَ الْعَوَاصِفِ الْهُوجِ (الرِّيَاحِ الَّتِي تَهْبُ يَمِينًا وَشِمَالًا)، وَعُغْفَ الزَّوَابِعِ الَّتِي تَقْتُلُ الدَّوْحَ (الْأَشْجَارَ الضَّخْمَةَ)، وَلَكِنِّي لَمْ أَرِ — فِي كُلِّ مَا رَأَيْتُ مِنَ الْمُرَوَّعَاتِ — بَعْضَ مَا رَأَيْتُهُ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ الْهَائِلَةِ، وَلَمْ يَكُنْ لِيَدُورَ بِخَلْدِي أَنَّ الْعَوَاصِفَ تُمْطِرُ شَرًّا، وَأَنَّ السَّمَاءَ تَقْدِفُ سَاكِنِي الْأَرْضِ نَارًا وَلَهَبًا! لَقَدْ هَوَّتِ الصَّوَاعِقُ عَلَى بَعْضِ الْأَهْلِينَ فَأَحْرَقَتْهُمْ، وَرَأَيْتُ فِي طَرِيقِي عَبْدًا تَغْمُرُ النَّارُ جِسْمَهُ، وَنِسَاءً مَذْعُورَاتٍ سَاحِبَاتٍ (مُتَغَيِّرَاتِ الْوُجُوهِ) يَعْنَسْنَ الطَّرِيقَاتِ (يَنْحَبِّطْنَ

فِي سَيْرِهِنَّ عَلَى غَيْرِ هُدًى)، وَقَدْ مَلَأَ الدُّعْرُ قُلُوبَهُنَّ. وَأَبْصَرْتُ أَسَدًا شَارِدًا فِي الطَّرِيقِ، وَقَدْ نَظَرْتُ إِلَيَّ مُحَدِّقًا، وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَأَذًى. وَقَدْ سَمِعْنَا الْبُومَةَ — ظُهِرَ أَمْسٍ — تَنْعَبُ وَتُنْذِرُنَا بِالْوَيْلِ، فَعَجِبْنَا: كَيْفَ ظَهَرَتْ نَهَارًا، وَلَمْ يَكُنْ لَنَا بِذَلِكَ عَهْدٌ؟
فَقَالَ لَهُ «شَشِيرُونُ»: «مَا أَجْدَرَنِي بِالْعُودَةِ إِلَى دَارِي، فَإِنَّ الطَّرِيقَ مَخُوفَةٌ لَا تُشْجِعُ عَلَى الْبَقَاءِ فِيهَا.»



وَمَا تَرَكَهُ «شَشِيرُونُ»، حَتَّى جَاءَ «كَسْيَاسُ»؛ فَحَيَّا صَدِيقَهُ «كَسْكَا»، وَرَأَى مَا يُسَاوِرُهُ مِنَ الدُّعْرِ وَالْخَوْفِ؛ فَقَالَ لَهُ: «لَيْسَ أَحَبُّ إِلَيَّ نَفْسِي مِنْ هَذِهِ الْعَوَاصِفِ الْمُلتَهَبَةِ النَّائِرَةِ؛ فَإِنَّهَا تُوقِظُ الْهَمَمَ، وَتُنْذِرُ بِأُمُورِ جِسَامٍ (عَظِيمَةٍ). وَلَسْتُ أَرَى — فِي هَذِهِ الْأَحْدَاثِ الْهَائِلَةِ — إِلَّا إِنْذَارًا لِسَاكِنِي «رُومَةَ» بِطَرْحِ الْخُمُولِ وَالْكَسْلِ، وَشَحْذًا لِعَزَائِمِهِمُ الْخَائِرَةِ، وَتَقْوِيَةً لِهَمَمِهِمُ الضَّعِيفَةِ الْفَاتِرَةِ؛ لِيَنْتَقِمُوا مِنَ الظَّلَمَةِ الْمُسْتَبِدِّينَ، وَيَقْوُضُوا صُرُوحَ الْبَغْيِ (يُسْقِطُوا بُيُوتَ الظُّلَمِ)، وَيَقْضُوا عَلَى نَفُودِ «قَيْصَرَ» الَّذِي أَذَلَّ زُعَمَاءَ الْبِلَادِ، وَجَعَلَهُمْ لَهُ عَبِيدًا وَخَدَمًا.»

وَكَانَ «كَسْيَاسُ» يَرَى — فِي ثَوْرَةِ الطَّبِيعَةِ وَطُغْيَانِهَا — مِثَالًا لِمَا يَجِيشُ فِي نَفْسِهِ مِنْ
ثَوْرَةِ الْحَقْدِ. وَقَدْ أُسِّرَ إِلَى «كَسْكَ» بِمَا يَشْتَعِلُ فِي صَدْرِهِ مِنْ ضُرُوبِ الْكَيْدِ لـ«قَيْصَرَ». وَمَا
زَالَ بِهِ حَتَّى ضَمَّهُ إِلَى شِيعَتِهِ وَأَنْصَارِهِ.

وَبَاتَ «كَسْيَاسُ» لَيْلَهُ سَاهِدًا (مُورَقًّا لَا يَنَامُ)، يُدَبِّرُ مَكِيدَتَهُ، وَيَحْكُمُ مُؤَامَرَتَهُ الَّتِي
اعْتَزَمَ إِنْفَازَهَا فِي عَدَاةِ الْغَدِ (صُبْحِ الْيَوْمِ التَّالِيِ)، مَعَ رِفَاقِهِ الْحَاقِدِينَ، وَشِيعَتِهِ الْغَادِرِينَ.

الفصل الثاني

(١) وسائوس «بروتس»

قَصَى «بروتس» لَيْلَةً هَائِلَةً، وَظَلَّ طَرِيحَ الْفِرَاشِ، تَنْتَابُهُ الْوَسَاوِسُ، وَتُعَاوِدُهُ الْمَخَافُفُ، وَلَمْ يَطَّرُقِ الْكَرَى طَرَفَهُ (لَمْ يَزِرِ النَّوْمُ عَيْنَهُ). وَلَمَّا انْتَصَفَ اللَّيْلُ هَبَّ مِنْ فِرَاشِهِ مَذْعُورًا، وَأَيَّقَظَ خَادِمَهُ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُوقِدَ الْمِصْبَاحَ، ثُمَّ أَطْرَقَ «بروتس» مُفَكِّرًا، وَقَلْبُهُ يَفِيضُ أَسَى وَحُزْنًا، لِهَوَلِ مَا هُوَ قَادِمٌ عَلَيْهِ.

وَكَانَ «بروتس» خَيْرَ صَدِيقٍ مُخْلِصٍ وَفِيٍّ لـ «قَيْصَرَ»، وَلَمْ يَكُنْ يَلْقَى مِنْهُ إِلَّا مَا يُحِبُّ. لِهَذَا وَقَفَ «بروتس» مُتَرَدِّدًا حَائِرًا، يُحَاوِلُ أَنْ يُسَوِّغَ جَرِيْمَتَهُ (يَجْعَلَهَا مَقْبُولَةً) أَمَامَ نَفْسِهِ، بَعْدَ أَنْ اعْتَزَمَ تَحْقِيقَهَا. وَلَمْ يَكُنْ نِئْمَةً مَا يُبِيحُ اقْتِرَافَ هَذِهِ الْفِعْلَةِ الشَّنْعَاءِ. وَقَدْ أَعْوَزَتْهُ الْأَسْبَابُ، فَلَمْ يَجِدِ الْأَدِلَّةَ الَّتِي تُقْنِعُهُ بِصَوَابِ مَا سَمِعَهُ مِنْ «كَسْيَاس»، وَلَمْ يَبْقَ عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ يَخْلُقَ تِلْكَ الْأَسْبَابَ خَلْقًا.

(٢) مُسَوِّغَاتُ الْجَرِيْمَةِ

فَقَالَ «بروتس» لِنَفْسِهِ: «إِنَّ الطَّمَعَ بِلَا شَكٍّ سَيَغْرِي «قَيْصَرَ» بِظُلْمِ الشَّعْبِ، وَالتَّكَبُّرِ عَلَى أَصْدِقَائِهِ. وَلَئِنْ صَحَّ مَا قَالَهُ «كَسْيَاس» لِيَكُونَنَّ إِنْقَاذُ «رُومَةَ» عَلَى أَيْدِينَا مِنْ عَسْفِ الْمُسْتَبِدِّينَ، وَجَوْرِ الظَّالِمِينَ، وَلَنَرْجِعَنَّ لِلنَّاسِ حُرِّيَّتَهُمُ الْمَسْلُوبَةَ. أَلَا إِنِّي لَا أَضْمِرُ حَقْدًا لـ «قَيْصَرَ»، وَمَا كُنْتُ لَهُ عَدُوًّا يَوْمًا مِنَ الْأَيَّامِ، وَلَكِنَّ مَصْلَحَةَ بِلَادِي خَيْرٌ مِنْ صِدَاقَتِهِ، وَحُرِّيَّةِ

وَطَنِي أَثْمَنُ مِنْ إِرْضَاءِ «قَيْصَرٍ». لَقَدْ طَمَحَتْ نَفْسُهُ إِلَى أَنْ يَتَوَجَّ عَلَى «رُومَةٍ»؛ فَإِذَا تَمَّ لَهُ ذَلِكَ، مَكَّنَّا لَهُ مِنْ رِقَابِنَا، وَأَذَلَّنَا لَهُ أَعْنَاقَنَا، وَحَنَيْنَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ رُؤُوسَنَا. إِنَّ «قَيْصَرَ» لَمْ يُسَيِّ إِلَيْنَا، وَلَا إِلَى «رُومَةٍ» قَطُّ، وَلَكِنَّهُ — إِذَا تَمَّ لَهُ مَا رُبُّهُ (مُرَادُهُ)، وَتَحَقَّقَتْ أَطْمَاعُهُ — لَنْ يَرْحَمَ كَانَتْ كَانُ، وَلَنْ يَتَوَرَّعَ عَنِ الْبَطْشِ بِرُءُوسِ «رُومَةٍ»، وَقَتْلِ أَعْيَانِهَا. إِنَّ بَيْضَةَ الْأَفْعَى لَا بُدَّ أَنْ تُفْرِخَ بَعْدَ حِينٍ، ثُمَّ تُصْبِحُ حَيَّةً حَبِيئَةً مُؤْذِيَةً تَفْتِكُ بِكُلِّ مَا تَلْقَاهُ فِي طَرِيقِهَا. وَمَا أَجْدَرْنَا أَنْ نُحْطِمَ الْبَيْضَةَ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْهَا الْحَيَّةُ. إِنَّ عَقْلَ «قَيْصَرٍ» رَاجِحٌ لَمْ تَغَالِبْهُ الْأَهْوَاءُ وَالزَّرْعَاتُ الضَّارَّةُ، وَلَمْ يُغَيِّرْهُ النَّجَاحُ — فِيمَا نَعْلَمُ — وَلَكِنَّ الْحَيَاةَ قَدْ حَذَرْتَنَا أَنْ نَتَّخِذَ بِتِلْكَ الْمَظَاهِرِ؛ فَإِنَّ الْعُظَمَاءَ جَمِيعًا يَتَّخِذُونَ التَّوَاضُعَ — فِي بَدْءِ حَيَاتِهِمْ — مِرْقَاةً إِلَى أَطْمَاعِهِمْ، وَسُلْمًا لِحَقِيقِ أَغْرَاضِهِمْ؛ حَتَّى إِذَا بَلَغُوا الْقِمَّةَ، نَسُوا كُلَّ شَيْءٍ، وَتَطَلَّعُوا إِلَى سَمَاءِ الْعُظَمَةِ. وَلَمْ يَذْكُرُوا السُّلْمَ الَّذِي صَعِدُوا أَذْرَاجَهُ، وَارْتَقَوْا مَرَاتِبَهُ مِنَ الْأَدْنَى إِلَى الْأَعْلَى، وَلَمْ يَعْرِفُوا لَهُ فَضْلًا عَلَيْهِمْ.»

(٣) بِطَاقَةُ الْمُؤَامَرَةِ

وَضَلَّ «بُرُوتُسُ» يُعَلِّلُ نَفْسَهُ بِهَذِهِ التَّعَلَّلَاتِ الْخَاطِئَةِ. وَإِنَّهُ لَغَارِقٌ فِي أَوْهَامِهِ، إِذْ دَخَلَ عَلَيْهِ خَادِمُهُ «لُسْيُوسُ» وَفِي يَدِهِ بِطَاقَةٌ أَلْقَى بِهَا الْمُؤْتَمِرُونَ مِنْ نَافِذَةِ غُرْفَتِهِ، وَفِيهَا: «أَيُّهَا النَّائِمُ! اسْتَيْقِظْ، فَقَدْ حَانَ وَقْتُ الْعَمَلِ، وَاقْتَدِ بِأَسْلَافِكَ (اتَّبِعْ مَنْ قَبْلَكَ) مِنَ الْفَاتِحِينَ؛ فَإِنَّ إِنْقَادَ «رُومَةٍ» لَنْ يَتِمَّ إِلَّا عَلَى يَدَيْكَ.»

وَمَا انْتَهَى «بُرُوتُسُ» مِنْ قِرَاءَةِ الْبِطَاقَةِ، حَتَّى سَمِعَ طَرَقًا بِالْبَابِ، وَكَانَ الْقَادِمُ «كَسْيَاسُ» وَمَعَهُ أَرْبَعَةٌ مِنْ رِفَاقِهِ الْمُؤْتَمِرِينَ بِ«قَيْصَرٍ»، وَهُمْ جَمِيعًا مُلْتَمُونَ (مُعْطُونَ أَوْجُوهَهُمْ) لَا يَبْدُو مِنْهُمْ غَيْرُ أَعْيُنِهِمْ. فَأَمَرَهُمْ «بُرُوتُسُ» أَنْ يَمِيطُوا اللَّتَامَ (يَرْفَعُوهُ عَنْ وُجُوهِهِمْ)، وَقَالَ لَهُمْ: «لَسْنَا أَثَمَّةً وَلَا مُجْرِمِينَ، فَمَا بَالُنَا نَعْمَلُ فِي الظَّلَامِ؟»

ثُمَّ جَلَسُوا يَتَشَاوَرُونَ سَاعَةً فِيمَا يَفْعَلُونَ. وَاقْتَرَحَ «كَسْيَاسُ» أَنْ يُقْسِمُوا جَمِيعًا عَلَى الْوَفَاءِ بِعُھُودِهِمْ لَوَطَنِهِمُ الْعَزِيزِ، وَالْإِنْتِقَامِ مِنْ «قَيْصَرٍ» الْمُسْتَبِدِّ. فَصَاحَ فِيهِمْ «بُرُوتُسُ» صَيْحَةً الْمُغْضَبِ الْحَانِقِ: «مَا حَاجَتُنَا إِلَى الْقَسَمِ، وَنَحْنُ رَجَالٌ لَا نَتَرَدَّدُ فِيمَا نَعْتَزِمُ؟ إِنَّ الْأَمَانَ وَآمَالَنَا وَاحِدَةٌ، وَقَدْ آلَيْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا (أَقْسَمْنَا) أَنْ نَخْدُمَ الْوُطْنَ، وَنُنْقِذَ «رُومَةَ»

وَنَبْطِشَ بِالْمُسْتَبِدِّ الظَّالِمِ. فَإِذَا لَمْ نَكُنْ خَلِيقِينَ بِتَحْقِيقِ أَمَالِ الْبِلَادِ، فَلَا خَيْرَ فِينَا، وَلَا فَائِدَةَ مِنَ الْقَسَمِ.» فَأَمَّنُوا جَمِيعًا عَلَى رَأْيِهِ.

(٤) اقْتِرَاحُ «كَسْيَاسِ»

ثُمَّ قَالَ «كَسْيَاسُ»: «لَا فَائِدَةَ مِنْ قَتْلِ «قَيْصَرَ» إِذَا لَمْ نَتَّبِعْهُ قَتْلَ صَدِيقِهِ الْحَمِيمِ «أَنْطُنْيُوسَ»؛ حَتَّى لَا يَهْيِجَ الشَّعْبَ، فَيُحَرِّضُهُ عَلَى إِيْذَانِنَا وَالْإِنْتِقَامِ مِنَّا.» فَقَالَ «بُرُوتَسُ»: «لَا سَبِيلَ لَنَا إِلَى تَحْقِيقِ هَذَا الْاِقْتِرَاحِ، وَإِلَّا أَصْبَحْنَا مُجْرِمِينَ سَفَاحِينَ مُسِيلِينَ لِلدَّمَاءِ مُجْبِينَ لِلْعُدْرِ».

لَقَدْ اعْتَرَمَنَا أَنْ نُنْقِذَ الْبِلَادَ مِنْ اسْتِبْدَادِ «قَيْصَرَ» وَظُلْمِهِ، فَمَا ذَنْبُ «أَنْطُنْيُوسَ»؟ وَمَا بَالُنَا نَجْزِعُ مِنْهُ، وَهُوَ لَمْ يُسِئْ إِلَى وَطَنِنَا، وَلَمْ تَبْدُرْ مِنْهُ إِسَاءَةٌ إِلَى «رُومَةَ»؟ لَوْ أَنَّنَا قَدَرْنَا عَلَى إِزْهَاقِ رُوحِ «قَيْصَرَ» دُونَ أَنْ نُرِيقَ مِنْ دِمِهِ قَطْرَةً وَاحِدَةً، لَكُنَّا أَسْعَدَ النَّاسِ. وَلَكِنْ وَآسَفَاهُ! لَا سَبِيلَ إِلَى ذَلِكَ، وَلَا مَعْدَى لَنَا (لَا مَخْلَصَ) عَنْ سَفْكِ دِمِهِ مُرْغَمِينَ، لِتَحْقِيقِ غَايَتِنَا النَّبِيلَةِ. وَلَوْلَا تَفَانِينَا فِي نُصْرَةِ الْوَاجِبِ وَخِدْمَةِ الْوَطَنِ، لَمَا فَكَّرْنَا لَحْظَةً وَاحِدَةً فِي الْإِقْدَامِ عَلَى هَذِهِ الْفَعْلَةِ النَّكَرَةِ.» فَلَمْ يَجِدْ «كَسْيَاسُ» بُدًّا مِنْ مُوَافَقَةِ «بُرُوتَسَ» عَلَى مَا قَالَ.

(٥) فِي السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ

ثُمَّ دَقَّتِ السَّاعَةُ الثَّالِثَةُ بَعْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ، فَقَالَ «كَسْيَاسُ»: «لَقَدْ حَانَ وَقْتُ الْإِنْصِرَافِ، فَوَدَاعًا أَيُّهَا الصَّدِيقُ النَّبِيلُ، حَقَّقَ اللَّهُ أَمَالَنَا، وَأَنْجَحَ مَسْعَانَا. وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ يَخْلَفَ «قَيْصَرُ» فِي هَذَا الْيَوْمِ عَنِ الذَّهَابِ إِلَى دَارِ النِّيَابَةِ؛ فَقَدْ أَصْبَحَ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ يَخَافُ وَيَتَطَيَّرُ (يَتَشَاءَمُ)، وَرُبَّمَا لَزِمَ بَيْتَهُ انْتِقَاءً لِمَا سَمِعَهُ مِنَ الْعُرَافِ، وَمَا رَأَهُ — اللَّيْلَةَ — مِنَ الْمُرْجَعَاتِ.»

فَقَالَ أَحَدُ الْمُؤْتَمِرِينَ: «لَا يَهْمُكُمْ ذَلِكَ؛ فَإِنِّي كَفَيْلٌ بِإِخْرَاجِهِ مِنْ قَصْرِهِ فِي هَذَا الْيَوْمِ، وَسَأَعْرِفُ كَيْفَ أَتَمَلَّقُهُ وَأَتَحَبَّبُ إِلَيْهِ، وَأُزَيِّنُ لَهُ الذَّهَابَ إِلَى دَارِ النِّيَابَةِ؛ حَتَّى لَا تَفْلِتَ مِنْ أَيْدِينَا هَذِهِ الْفُرْصَةُ الثَّمِينَةُ النَّادِرَةُ.»

وَهَكَذَا قَرَّ قَرَارُهُمْ، وَأَعَدُّوا عِدَّتَهُمْ لِلْفَتَكِ بِ«قَيْصَرَ» فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْمَشْتُومِ. ثُمَّ وَدَّعُوا «بُرُوتَسَ»، وَخَرَجُوا مَسْرُورِينَ بِمَا أَحْرَزُوهُ مِنْ قُوَى وَشِيكِ (نَجَاحٍ قَرِيبٍ).

(٦) حِوَارُ «بُرُشَا»

وَبَقِيَ «بُرُوتَسُ» غَارِقًا فِي وَسَاوِسِهِ وَأَحْلَامِهِ، وَإِنَّهُ لَيُفَكِّرُ فِي هَذِهِ الْمُوَامَرَةِ الْخَطِيرَةِ، إِذْ دَخَلَتْ عَلَيْهِ زَوْجُهُ «بُرُشَا».

فَدَهَشَ «بُرُوتَسُ» لِمَقْدَمِهَا، وَدَخُولِهَا عَلَيْهِ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ الْمُبَكَّرَةِ، وَسَأَلَهَا مُتَعَجِّبًا: «مَاذَا أَلَمَ بِكَ، أَيَّتُهَا الزَّوْجُ الْعَزِيزَةُ؟»

فَقَالَتْ لَهُ «بُرُشَا»: «مَا أَعْجَبَ مَا يَبْدُو مِنْكَ مِنْ شُدُودٍ فِي هَذَا الْيَوْمِ! تَرَى: أَيُّ شَيْءٍ قَدْ هَاجَ بِبَالِكَ، وَأَثَارَ هَمِّكَ وَعَمَلِكَ، وَأَزْعَجَ خَاطِرَكَ؟ أَيُّ حَادِثٍ أَقْضَى مَضْجَعَكَ (جَعَلَهُ خَشِنًا لَا تَطْمَئِنُّ عَلَيْهِ)؟ وَأَيُّ عَارِضٍ غَيَّرَ مِنْ أَخْلَاقِكَ؟ وَمَا بِأَلْكَ أَتَيْتَ أَنْ تُجِيبَنِي لَيْلَةً أَمْسٍ، حِينَ سَأَلْتُكَ عَنْ مَصْدَرِ شُكُوكِ وَمَبْعَثِ أَلَمِكَ؟ أَلَسْتُ أَنَا زَوْجُكَ الْوَفِيُّ الْمُخْلِصَةُ الْبَارَّةُ؟ أَلَسْتُ جَدِيرَةً أَنْ تَتَّقَ بِي، وَتُفْضِيَ إِلَيَّ بِدِخْلِكَ (تَبَوَّحَ لِي بِخَفِيِّ أَمْرِكَ)؟ فَمَا بِأَلْكَ تُحَذِّرُنِي، وَتَكْتُمُ عَنِّي مَصْدَرَ أَلَمِكَ، وَتَحْجُبُ دُونِي سِرَّ مَتَاعِيكَ؟ وَكَيْفَ تَتَسَلَّلُ مِنْ فِرَاشِي خُفِيَّةً دُونَ أَنْ تُخْبِرَنِي بِمَا أَقْضَى عَلَيْكَ مَضْجَعَكَ؟ وَلِمَاذَا تَتَنَفَّضُ مَدْعُورًا — لَيْلَةً أَمْسٍ — حِينَ كُنَّا نَتَعَشَّى، وَنَمْشِي فِي أُنْحَاءِ الْغُرْفَةِ ضَامًّا ذِرَاعَيْكَ إِلَى صَدْرِكَ، حَائِرَ النَّظَرَاتِ، يَكَادُ الْأَسَى يَفْتِكُ بِكَ، وَأَنْتِ تَتَنَفَّسُ الصُّعْدَاءَ (تَتَنَفَّسُ طَوِيلًا مِنْ شِدَّةِ الْهَمِّ)، وَقَدْ اسْتَوَلَى عَلَيْكَ الدُّهُولُ وَالْحَيْرَةُ؟ فَلَمَّا سَأَلْتُكَ — فِي رَفَقٍ وَحَنَانٍ — عَمَّا أَلَمَ بِكَ مِنَ الْأَحْدَاثِ وَالْخُطُوبِ، ثَارَ ثَائِرُكَ، وَنَظَرْتَ إِلَيَّ نَظْرَةً فِيهَا أَلْفُ مَعْنَى مِنْ مَعَانِي الْقَسْوَةِ وَالْحَقْدِ وَالْكَرَاهِيَةِ. فَلَمَّا أَلْحَحْتُ عَلَيْكَ خَاشِنَتْنِي (أَغْلَطْتُ عَلَيْكَ فِي الْكَلَامِ)، وَضَرَبْتَ الْأَرْضَ بِقَدَمِكَ، وَلَذْتَ بِالصَّمْتِ، وَلَجَأْتَ إِلَى السَّكَاتِ، وَأَشْرْتَ إِلَيَّ أَنْ أَذْهَبَ لِشَأْنِي. فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا مِنَ الْإِدْعَانِ لِإِسَارَتِكَ، وَقَدْ أَيْقَنْتُ أَنَّنِي — إِذَا أَصْرَرْتُ عَلَى سُؤَالِكَ — أَلْهَبْتُ ثَوْرَتَكَ، وَحَمَلْتُكَ عَلَى التَّمَادِي فِي شَرِّكَ. وَكَانَتْ هَذِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ تَقْسُو فِيهَا عَلَيَّ. فَلَمْ تَكْتُمْ عَنِّي — أَيُّهَا الزَّوْجُ النَّبِيلُ — مَا تُحْسُهُ مِنْ آلَامٍ؟ أَلَسْتُ عَلَى ثِقَةٍ أَنَّي شَرِيكَتُكَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَحَلِيفَتُكَ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَأَنَّي لَكَ صَادِقَةٌ أَمِينَةٌ، وَأَنَّكَ لِي نِعَمُ الزَّوْجِ الْبَارِّ الْوَفِيُّ الَّذِي لَا أَعْدِلُ بِهِ بَدِيلًا، وَالَّذِي هُوَ أَعَزُّ عَلَيَّ مِنْ نَفْسِي، وَأَتَمُّ مِنَ الْحَيَاةِ بِكُلِّ مَا تَحْوِيهِ مِنْ مَبَاهِجٍ وَأَفْرَاحٍ.»

(٧) رَسُولُ الشَّرِّ

وَمَا سَمِعَ «بُرُوتْسُ» مِنْ زَوْجِهِ هَذَا الْعِتَابَ الرَّقِيقِ، حَتَّى لَانَ جَانِبُهُ، وَسَرَّى عَنْهُ، وَطَابَ خَاطِرُهُ. وَهَمَّ بِأَنْ يُفْضِيَ إِلَى زَوْجِهِ بِدِخْلَتِهِ (يُحَدِّثُهَا بِحَقِيقَةِ أَمْرِهِ)، وَلَكِنَّهُ سَمِعَ طَرَقًا بِالْبَابِ؛ فَوَعَدَهَا بِأَنْ يُخْبِرَهَا بِجَلِيلَةِ الْأَمْرِ (حَقِيقَتِهِ)، بَعْدَ أَنْ يَسْتَقْبِلَ ذَلِكَ الزَّائِرِ. وَلَمْ يَلَوْ «بُرُوتْسُ» ضَيْفَهُ، حَتَّى عَرَفَ أَنَّهُ أَحَدُ الْمُؤْتَمِرِينَ بِ«قَيْصَرٍ»، جَاءَ إِلَيْهِ لِيُخْفِزَهُ إِلَى الْخُرُوجِ مَعَهُ لِنَتْفِيزِ الْمُؤَامَرَةِ الشَّنْعَاءِ. فَارْتَدَّى «بُرُوتْسُ» ثِيَابَهُ عَلَى عَجَلٍ، وَخَرَجَ مَعَ الزَّائِرِ، دُونَ أَنْ يُخْبِرَ زَوْجَهُ بِشَيْءٍ مِمَّا يَجُولُ فِي نَفْسِهِ، (يَتَرَدَّدُ فِيهَا) مِنَ الْوَسَاوِسِ الْمُزْعِجَةِ. وَجَلَسَتْ «پُرْشَا» تَرْتَقِبُ عَوْدَةَ زَوْجِهَا فَلَقَّةً مَهْمُومَةً، وَهِيَ لَا تَعْلَمُ مَا يَخْبُوهُ الْقَدَرُ مِنْ مُزْعَجَاتٍ وَأَحْدَاثٍ.

(٨) فِي بَيْتِ «قَيْصَرٍ»

أَمَّا «قَيْصَرُ» فَقَدْ نَهَضَ مِنْ نَوْمِهِ مُبَكَّرًا، وَهُوَ مُفَزَّعُ الْقَلْبِ، إِثْرَ مَا رَأَاهُ مِنَ الْوَسَاوِسِ وَالْأَحْلَامِ الرَّاعِبَةِ (الْمُخِيفَةِ) فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ اللَّيْلَاءِ. وَقَدْ قَضَتْ زَوْجُهُ «كَلْبَرْنِيَا» لَيْلَةً هَائِلَةً، وَنَهَضَتْ مِنْ نَوْمِهَا خَائِفَةً مَذْعُورَةً مَرَّاتٍ ثَلَاثًا، وَهِيَ تَصِيحُ مُرَوَّعَةً مُفَزَّعَةً: «وَا غَوَّثَاهُ! وََا مُصِيبَتَاهُ! أَدْرِكُوا «قَيْصَرَ». لَقَدْ أَحَاطَ بِهِ الْفُتَاكُ الْأَثْمُونُ، وَأَنْشَبُوا فِي جِسْمِهِ خَنَاجِرَهُمُ الْمَاضِيَةَ، أَدْرِكُوهُ فَإِنَّ الدَّمَاءَ تَتَدَفَّقُ مِنْ جَسَدِهِ!»

وَلَقَدْ ذَعَرَ كُلُّ مَنْ فِي الْقَصْرِ لِصِيحَاتِهَا، وَفَزِعُوا لِفَزَعِهَا، وَحَاوَلُوا جُهِدَهُمْ أَنْ يَسْرُوا عَنْهَا؛ فَذَهَبَتْ مَسَاعِيهِمْ أَذْرَاجَ الرِّيَاحِ (ضَاعَتْ بِلَا فَائِدَةٍ). فَلَمَّا أَصْبَحَتْ، حَاوَلَتْ جُهِدَهَا أَنْ تَمْنَعَ «قَيْصَرَ» مِنَ الْخُرُوجِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْمَشْهُومِ. وَلَكِنَّ «قَيْصَرَ» أَبَى أَنْ يَسْمَعَ لَهَا قَوْلًا، وَهَزَأَ بِكُلِّ مَا رَأَاهُ وَسَمِعَهُ مِنَ النَّذْرِ (النَّصَائِحِ وَالْعَلَامَاتِ الَّتِي أَنْذَرَ بِهَا وَحْدَرُ)؛ فَقَالَتْ لَهُ زَوْجُهُ: «لَسْتُ مِمَّنْ يُعْنَى بِسَفْسَافِ الْأُمُورِ وَحَقِيرِهَا، وَتَافِهِ الْأَشْيَاءِ وَصَغِيرِهَا. وَلَكِنِّي أَشْعُرُ — مِنْ أَعْمَاقِ نَفْسِي — بِشَوْمِ هَذَا الْيَوْمِ وَنَحْسِهِ، وَأَضْرَعُ إِلَيْكَ مُتَوَسِّلَةً أَلَّا تَخْرُجَ مِنْ بَيْتِكَ.»

فَقَالَ لَهَا «قَيْصَرُ»: «إِنَّ الرَّجُلَ لَا يَرْهَبُ الْمَوْتَ، وَلَا يَجْزَعُ مِنْ مُوَاجَهَةِ الْكَوَارِثِ، وَلِقَاءِ الْمَصَائِبِ. وَلَيْسَ «قَيْصَرُ» مِمَّنْ يَخَافُ الرَّدَى، وَيَخْشَى الْمَوْتَ.»

فَقَالَتْ لَهُ زَوْجُهُ: «لَقَدْ سَأَلْتُ الْعَرَّافِينَ، فَحَذَّرُونِي هَذَا الْيَوْمَ، وَأَوْصَوْا جَمِيعًا بِمَنْعِكَ مِنَ الْخُرُوجِ، حَتَّى لَا تَتَعَرَّضَ لِلْمَكَارِهِ وَالْخُطُوبِ.»
فَقَالَ لَهَا «قَيْصَرُ» هَازِتًا: «لَسْتُ بِالْوَالِيهِ الْمُلتَاعِ (الْحَزِينِ الْمُتَوَجِّعِ)، وَلَسْتُ بِالْجَبَانِ الَّذِي يَمُوتُ أَلْفَ مَرَّةٍ لِأَنَّهُ يَخَافُ الْمَوْتَ دَائِمًا. وَإِنَّمَا أَنَا حُرٌّ لَا يَخْشَى شَيْئًا، وَلَا يَخْذَعُهُ ضَوْءُ النَّهَارِ الَّذِي يَلْمَعُ بِهِ الرَّمْلُ فِي الصَّحْرَاءِ، فَيَظُنُّهُ النَّاطِرُ — مِنْ بَعِيدٍ — مَاءً، وَهُوَ سَرَابٌ خَدَّاعٌ. وَالْحُرُّ الْمِقْدَامُ لَا يَمُوتُ إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً حِينَ يَحْضُرُهُ أَجَلُهُ.»
ثُمَّ قَالَ:

يَخْشَى الرَّدَى، وَيَهَابُ الْمَوْتَ مُرْتَاعًا	«يَحْيَا الْجَبَانُ بِقَلْبٍ وَإِلِهِ فَزِعٌ
شَرُّ الْحِمَامِ، وَيَبْقَى الدَّهْرَ مُلْتَاعًا	يَمُوتُ أَلْفًا، وَيَخْشَى — مِنْ مَهَانَتِهِ —
وَلَا يُرْجِي سَرَابًا لَاحَ خَدَّاعًا	وَالْحُرُّ لَا يَرْهَبُ الْأَحْدَاثَ — إِنْ وَقَعَتْ —
وَلَيْسَ يَزْهَبُ إِلَّا أَلَمًا وَأَوْجَاعًا!»	يَمُوتُ وَاحِدَةً — إِنْ جَاءَهُ أَجَلٌ —

(٩) حُلْمُ «كَلْبُرْنِيَا»

فَقَصَّتْ عَلَيْهِ «كَلْبُرْنِيَا» حُلْمًا مُفْزِعًا رَأَتْهُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، وَتَوَسَّلَتْ إِلَيْهِ أَنْ يَكْفَّ عَنِ الْخُرُوجِ فِي هَذَا الْيَوْمِ، وَقَالَتْ لَهُ: «لَا تَخْشَ — أَيُّهَا السَّيِّدُ الْجَلِيلُ — أَنْ يَتَّهَمَكَ النَّاسُ بِالْخَوْفِ؛ فَإِنَّ شَجَاعَتَكَ مَعْرُوفَةٌ ذَائِعَةٌ. وَسَيَقُولُ النَّاسُ جَمِيعًا: إِنَّ «قَيْصَرَ» قَدْ عَدَلَ عَنِ الْخُرُوجِ إِرْضَاءً لِرِزْوَجِهِ، وَبَرًّا بِهَا. وَسَيَعْرِفُونَ أَنَّ خَوْفَ زَوْجِكَ — لَا خَوْفَكَ أَنْتَ — هُوَ السُّرُّ فِي امْتِنَاعِكَ مِنَ الذَّهَابِ إِلَى دَارِ النِّيَابَةِ.»



ثُمَّ رَكَعَتْ جَائِيَةً (جَالِسَةً عَلَى رُكْبَتَيْهَا) ضَارِعَةً إِلَيْهِ، مُسْتَشْفِعَةً بِهِ أَلَّا يُخَيِّبَ رَجَاءَهَا، وَأَلَّا يَتَرَكَهَا نَهَبَ الْأَلَامِ وَالْأَحْزَانِ (عُرْضَةً لَهَا، تَنْهَبُهَا وَتَقْتَرِسُهَا)، وَأَنْ يُسِرَّ إِلَى «أَنْطُنْيُوسَ» بِالذَّهَابِ إِلَى دَارِ النِّيَابَةِ، لِيُخْبَرَ نَوَّابَ «رُومَةَ» أَنَّ «قَيْصَرَ» قَدْ امْتَنَعَ عَنِ الذَّهَابِ إِلَيْهِمْ، لِأَمْرِ طَارِيٍّ أَلَمَ بِهِ. فَلَمْ يَزِ «قَيْصَرُ» بُدًّا مِنْ تَلْيِيَةِ رَجَائِهَا، وَاعْتَرَمَ الْبَقَاءَ فِي قَصْرِهِ إِرْضَاءً لَهَا.

(١٠) نَأْوِيلُ الرُّؤْيَا

وَمَا اسْتَقَرَّ قَرَارُهُ حَتَّى قَدِمَ عَلَيْهِ «دِسْيَاسُ» — أَحَدُ الْمُؤْتَمِرِينَ بِهِ — يَدْعُوهُ إِلَى الْخُرُوجِ. فَقَالَ لَهُ «قَيْصَرُ»: «لَقَدْ اعْتَرَمْتُ الْبَقَاءَ فِي بَيْتِي — هَذَا الْيَوْمَ — فَاذْهَبْ إِلَى نَوَّابِ «رُومَةَ» وَاحْمِلْ قَرَارِي إِلَيْهِمْ.»

فَقَالَتْ «كَلْبَرْنِيَا» لِلرَّسُولِ: «نَعَمْ، وَخَبَّرْهُمْ أَنَّ «قَيْصَرَ» مَرِيضٌ لَا يَسْتَطِيعُ الْخُرُوجَ. فَصَاحَ «قَيْصَرُ»: «كَلَّا لَا تَفْعَلْ، يَا «دِسْيَاسُ»! ثُمَّ انْفَتَحَ «قَيْصَرُ» إِلَى زَوْجِهِ، وَقَالَ: «أَتُرِيدُنِي عَلَى أَنْ أَكْذِبَ؟ أَلَا سَاءَ مَا تَتَوَهَّمِينَ، يَا إِلَهَ! أَيْكَذِبُ «قَيْصَرُ»؟ وَهَلْ يَكْذِبُ الرَّجُلُ الشَّرِيفُ؟»

ثُمَّ صَاحَ فِي صَاحِبِهِ «دِسْيَاسُ» قَائِلًا: «كَلَّا، لَسْتُ مَرِيضًا؛ فَلَا تَكْذِبُهُمُ الْقَوْلَ، يَا «دِسْيَاسُ». حَسْبُكَ أَنْ تُخَبِّرَهُمْ أَنَّي قَدْ اعْتَرَمْتُ الْبَقَاءَ فِي الْبَيْتِ هَذَا النَّهَارِ.»

فَقَالَ لَهُ «دِسْيَاسُ»: «مَاذَا تَقُولُ، يَا سَيِّدِي الْقَيْصَرُ؟ وَكَيْفَ يَتَلَقَّى النُّوَابُ هَذَا الْقَرَارَ؟»

فَقَالَ لَهُ «قَيْصَرُ»: «لَقَدْ رَأَتْ زَوْجِي — فِي اللَّيْلَةِ الْمَاضِيَةِ — حُلْمًا هَائِلًا (مُخِيفًا)، مَلَأَ قَلْبَهَا فَرْعًا وَرُعْبًا، إِذْ أَبْصَرَتْ فِي مَنَامِهَا تِمَثَالِي، وَقَدْ فَاضَ مِنْهُ مَائَةٌ نَبْعٍ مِنَ الدَّمَاءِ الزَّكِيَّةِ (الطَّيِّبَةِ الطَّاهِرَةِ)، ثُمَّ أَقْبَلَتْ جَمَهْرَةً مِنْ أَهْلِ «رُومَةَ»، فَعَمَسَتْ أَيْدِيهَا فِي الدَّمَاءِ مُبْتَهَجَةً مُسْرُورَةً.

وَقَدْ هَالَتْ زَوْجِي تِلْكَ الرُّؤْيَا وَأَخَافَتُهَا، وَرَعِبْتُهَا وَفَزَعْتُهَا؛ فَأَصْرَتْ عَلَى بَقَائِي مَعَهَا فِي الدَّارِ، طُولَ هَذَا النَّهَارِ.»

فَضَحِكَ «دِسْيَاسُ»، وَقَالَ لـ«قَيْصَرِ»: «أَيُّ فَرْعٍ فِي هَذِهِ الرُّؤْيَا السَّارَةِ الْبَهِيجَةِ؟ إِنْ لِي رَأْيًا فِي تَأْوِيلِهَا (تَفْسِيرِهَا) غَيْرَ مَا تَرَيَانِ؛ فَإِنَّ الْأَحْلَامَ تُؤُولُ (تُعَبَّرُ) عَلَى عَكْسِ مَا يَرَاهُ الْحَالِمُ، وَلَسْتُ أَرَى فِي تِلْكَ الدَّمَاءِ الْمُرَاقَةِ (الْمُسْفُوحَةِ الْمَسْكُوبَةِ) — الَّتِي سَأَلْتُ مِنْ تِمَثَالِكَ، وَاعْتَسَلَ فِيهَا أَشْرَافُ «رُومَةَ» — إِلَّا دَلِيلًا جَدِيدًا عَلَى مَا يَبْعَثُ رُوحَكَ الْعَظِيمُ — فِي أَبْنَاءِ «رُومَةَ» — مِنَ الْقُوَّةِ، وَمَا تُكْسِبُ دِمَاؤُكَ الزَّكِيَّةَ وَطَنَكَ مِنَ الْحَيَاةِ وَالْفَتْوَةِ. وَالرَّأْيُ عِنْدِي أَنَّ ذَلِكَ الْحُلْمَ الْبَهِيجَ يَدُلُّ عَلَى مَكَانَتِكَ فِي قُلُوبِ الرُّومَانِ، إِذْ يُمَثِّلُ أَفْزَادَ «رُومَةَ» (أَفْرَادَهَا الْمُتَمَتِّزِينَ) وَعُظَمَاءَهَا، مُقْبِلِينَ عَلَيْكَ، مُعْجَبِينَ بِمَزَايَاكَ الْبَاهِرَةِ، رَاغِبِينَ فِي أَنْ يَطْفَرُوا بِأَثَرٍ مِنْ أَثَارِكَ الزَّكِيَّةِ الطَّاهِرَةِ.»

(١١) حِيلَةُ «دِسْيَاسُ»

فَابْتَهَجَ «قَيْصَرُ» بِمَا سَمِعَ، وَسَرَّ مِنْ تَأْوِيلِ الرُّؤْيَا، وَعَدَلَ عَنِ الْبَقَاءِ فِي دَارِهِ. فَاسْتَأْنَفَ «دِسْيَاسُ» كَلَامَهُ قَائِلًا: «لَقَدْ اعْتَرَمَ سَرَاةَ «رُومَةَ» (أَشْرَافُهَا) أَنَّ يَمْنَحُوكَ التَّاجَ فِي هَذَا الْيَوْمِ، وَرَبِّمَا أَعْضَبَهُمْ تَخَلُّفُكَ عَنِ الْحُضُورِ، وَرَأَوْا فِي ذَلِكَ إِزْرَاءً (تَحْقِيرًا) لَهُمْ، وَاسْتَهَانَةً بِهِمْ، وَتَعَالِيًا عَلَيْهِمْ؛ فَعَدَلُوا عَنْ رَأْيِهِمْ فِيكَ، وَانْقَلَبَ حُبُّهُمْ إِيَّاكَ ضَغِينَةً عَلَيْكَ وَحَقْدًا.

وَلَنْ يَقْبَلَ كَائِنٌ كَانَ أَنَّ يُصَدِّقَ أَنَّ «قَيْصَرَ» يَخَافُ لِحُوفِ زَوْجِهِ، وَيَنْسَى وَاجِبَهُ اتِّقَاءَ لُوسَاوَسَ لَا خَطَرَ لَهَا. وَلَنْ يَدُورَ بَخْلِدٍ إِنْسَانٍ (لَنْ يَمُرَّ بِخَاطِرِ أَحَدٍ)، أَنَّ «قَيْصَرَ» يَنْسَى شَعْبَهُ، مُسْتَسْلِمًا لِأَضْعَافِ الْأَحْلَامِ (أَخْلَاطِهَا).

الفصل الثاني

وَلَقَدْ كُنْتُ — لَوْلَا حُبِّيكَ (مَحَبَّتِي إِيَّاكَ) وَوَفَائِي لَكَ — مُقِرَّكَ عَلَى رَأْيِكَ؛ وَلَكِنِّي أَخْشَى — إِنْ فَعَلْتُ ذَلِكَ — أَنْ أَكُونَ مِنَ الْأَثَمَةِ الْغَادِرِينَ!«
فَحَجَلَ «قَيْصَرٌ» مِمَّا سَمِعَ، وَقَرَّرَ الذَّهَابَ — مِنْ قَوْمِهِ — إِلَى دَارِ النِّيَابَةِ. وَارْتَدَّى عِبَاءَتَهُ، وَهَمَّ بِالْخُرُوجِ؛ فَرَأَى بَقِيَّةَ الْمُؤْتَمِرِينَ بِهِ قَائِمِينَ عَلَى دَارِهِ — وَعَلَى رَأْسِهِمْ «بُرُوتُسُ» — يَدْعُوْنَهُ لِمُرَافَقَتِهِمْ إِلَى دَارِ النِّيَابَةِ.
ثُمَّ جَاءَ صَدِيقُهُ الْوَفِيُّ «أَنْطُونْيُوسُ»، وَخَرَجُوا جَمِيعًا مَعَ «قَيْصَرٍ»، وَقَدْ سُرِّي عَنْهُ، وَزَالَتْ وَحْشَتُهُ، وَذَهَبَ مَا كَانَ يُسَاوِرُهُ مِنَ الْمَخَافِ.

(١٢) جَزَعُ «بُرُوتَا»

أَمَّا «بُرُوتَا» — زَوْجُ «بُرُوتُسِ» — فَقَدْ اشْتَدَّ جَزَعُهَا عَلَى زَوْجِهَا. وَقَدْ أَدْرَكَتْ — مِمَّا رَأَتْهُ مِنَ الْإِضْطِرَابِ عَلَى أَسَارِيرِهِ (خُطُوطِ جَبِينِهِ) — أَنَّهُ قَائِمٌ عَلَى أَمْرٍ جَلِيلٍ (عَظِيمٍ)، وَخَشِيَتْ أَنْ يُصِيبَهُ سُوءٌ. فَلَمَّا بَلَغَتِ السَّاعَةَ التَّاسِعَةَ، أَمَرَتْ خَادِمَهَا أَنْ يَذْهَبَ إِلَى دَارِ النِّيَابَةِ لِيُطْمَئِنِّهَا.

وَلَكِنَّهَا سَمِعَتْ صَوْتًا خَافَتْ؛ فَأَرْهَفَتْ أُذُنَيْهَا، حَتَّى دَانَاهَا الصَّوْتُ؛ فَرَأَتْ عَرَّافًا يَقْتَرِبُ، فَنَادَتْهُ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهَا. فَسَأَلَتْهُ عَمَّا يَخْبُوهُ الْقَدَرُ لِزَوْجِهَا مِنَ الْأَحْدَاثِ.



فَقَالَ لَهَا الْعَرَّافُ: «أَرَى أَنَّ زَوْجَكَ يَهُمُّ بِعَظِيمَةٍ مِنْ عَظِيمَاتِ الْأُمُورِ، وَأَخْشَى أَنْ يَلْقَى — مِنَ الْمَكَارِهِ وَالْخُطُوبِ — مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا عَلَّامُ الْغُيُوبِ.»
فَقَالَتْ لَهُ «بُرْشَا» مَحْزُونَةً خَائِفَةً: «هَلْ خَرَجَ «قَيْصَرٌ» مِنْ دَارِهِ؟»
فَأَجَابَهَا الْعَرَّافُ: «لَقَدْ حَانَ مَوْعِدُ خُرُوجِهِ، وَسَاءَ ذَهَبُ إِلَيْهِ؛ لِأَحْذَرُهُ عَاقِبَةَ هَذَا الْيَوْمِ الْمَشْنُومِ.»

الفصل الثالث

(١) النذير الأول

أَمَّا «قَيْصَرُ» فَقَدْ سَارَ مَعَ رِفَاقِهِ الْغَادِرِينَ — وَهُوَ لَا يَعْلَمُ مَا تَحْبُوهُ لَهُ الْأَقْدَارُ — حَتَّى بَلَغُوا دَارَ النِّيَابَةِ.

وَمَا سَارَ «قَيْصَرُ» خُطُواتٍ قَلِيلَةً، حَتَّى دَانَاهُ فَيْلَسُوفُ رُومِيٍّ (يُونَانِيٍّ). وَكَانَ هَذَا الْفَيْلَسُوفُ الرُّومِيُّ يُحِبُّ «قَيْصَرَ» وَيُخْلِصُ لَهُ؛ فَقَدَّمَ إِلَيْهِ وَرَقَةً يُحَذِّرُهُ فِيهَا غَدْرَ أَصْحَابِهِ الْمُحِيطِينَ بِهِ.

فَقَالَ لَهُ «قَيْصَرُ»: «أَرْجِئْ هَذِهِ الْوَرَقَةَ إِلَى مَا بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ». فَقَالَ لَهُ الْفَيْلَسُوفُ النَّاصِحُ: «بِرَبِّكَ — يَا سَيِّدِي الْقَيْصَرُ — عَجِّلْ بِقِرَاءَتِهَا؛ فَإِنَّ فِيهَا أَمْرًا خَطِيرًا يَعْنِيكَ، وَيَهْمُكَ أَنْ تَتَعَرَّفَهُ». فَقَالَ لَهُ «قَيْصَرُ»: «مَا دَامَتِ الْوَرَقَةُ لَا تَعْنِي سِوَايَ، وَلَا تَهْمُ غَيْرِي، فَإِنِّي مُرْجِئُ رُؤْيَتَهَا، وَمُؤَخَّرُ قِرَاءَتِهَا حَتَّى أَنْتَهِيَ مِنْ وَاجِبَاتِ الدَّوْلَةِ وَفُرُوضِهَا». فَلَمَّا رَأَى «كُتَيْبُ» الدَّاهِيَةَ الذَّكِيَّ الْخَاسِرَ ذَلِكَ النَّاصِحَ، خَشِيَ أَنْ تَسُوءَ الْعَاقِبَةُ، وَتَوَجَّسَ مِنْهُ شَرًّا؛ فَقَالَ لَهُ غَاضِبًا: «حَذَارِ أَنْ تُلْحِفَ (إِيَّاكَ أَنْ تُلْحَ) عَلَى الْقَيْصَرِ الْعَظِيمِ! وَحَسْبُكَ أَنَّهُ قَدْ وَعَدَكَ بِالنَّظَرِ فِي أَمْرِكَ».

وَأَنْتَهَزَ «كُتَيْبُ» الْمَاهِرُ هَذِهِ الْفُرْصَةَ، فَأَخَذَ الْوَرَقَةَ، وَاسْتَبَدَّلَ بِهَا أُخْرَى؛ لِيَأْمَنَ كُلَّ شَرٍّ.

(٢) النَّذِيرُ الثَّانِي

وَسَارَ «قَيْصَرُ» خُطُوطَ قَلِيلَةٍ أُخْرَى، فَلَمَحَ الْعَرَّافُ الَّذِي حَدَّرَهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ — مِنْ قَبْلُ — فَقَالَ لَهُ «قَيْصَرُ» بِاسْمًا: «أَلَيْسَ هَذَا الْيَوْمَ مُنْتَصَفَ «مَارِس» الَّذِي حَدَرْتَنِي إِيَّاهُ؟»
فَقَالَ لَهُ الْعَرَّافُ: «إِنَّ الْيَوْمَ — يَا سَيِّدِي الْقَيْصَرُ — لَمَّا يَنْتَه، وَلَا زِلْتُ أُوصِيكَ بِالْيَقَظَةِ وَالْحَذَرِ.»
فَقَالَ لَهُ «قَيْصَرُ» هَازِنًا: «مَا أَنَا بِحَاجَةٍ إِلَى تَحْذِيرِكَ؛ فَإِنَّ «قَيْصَرَ» لَا يَخْشَى كَانِنًا كَانَ.»

(٣) ضَرَاعَةُ الْمُؤْتَمِرِينَ

ثُمَّ تَبَوَّأَ «قَيْصَرُ» — سَيِّدُ الدُّنْيَا — مَجْلِسَهُ، تَحْتَ تِمْنَالٍ «بُمْبِي»، وَأَحَاطَ بِهِ شُيُوخُ «رُومَةٍ».



وَتَأَهَّبَ الْمُؤْتَمِرُونَ بِهِ، وَاسْتَعَدُّوا لِإِنْفَازِ جَرِيمَتِهِمْ.
فَاقْتَرَبَ أَحَدُهُمْ مِنْ «أَنْطُونْيُوسَ» — صَدِيقِ الْقَيْصَرِ الْحَمِيمِ — وَشَغَلَهُ بِشَتَّى الْحَدِيثِ، وَاسْتَدْرَجَهُ حَتَّى أَخْرَجَهُ مِنْ مَجْلِسِ «قَيْصَرٍ»؛ لِيَمَكِّنَ رِفَاقَهُ مِنْ اغْتِيَالِ سَيِّدِ

«رُومَةَ» وَزَعِيمَهَا الْأَوْحِدَ. وَنَقَدَمَ «مَتِيلُوسُ» مُتَوَجِّهًا إِلَى «قَيْصَرَ»؛ فَرَكَعَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ ضَارِعًا، مُتَوَسِّلًا إِلَيْهِ أَنْ يَغْفُوَ عَنْ أَخِيهِ، وَيَرْجِعَهُ إِلَيْهِ مِنْ مَنَافَاهُ السَّحِيقِ (الْبَعِيدِ). فَغَضِبَ عَلَيْهِ «قَيْصَرُ»، وَقَالَ لَهُ: «إِنَّ الْمَهَانَةَ وَالْمَذَلَّةَ وَالضَّرَاعَةَ لَا تَلِيْقُ بِالرِّجَالِ، وَلَيْسَ «قَيْصَرُ» بِنَاقِضِ حُكْمِهِ، وَلَا رَاجِعُ عَنْهُ، وَلَا مُتَرَدِّدٌ فِي أَمْرِهِ.» فَانْضَمَّ إِلَيْهِ بَقِيَّةُ الْمُؤْتَمِرِينَ بِ«قَيْصَرَ»، وَرَكَعُوا — وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ — يَلْتَمِسُونَ الرَّحْمَةَ بِأَخِيهِ، وَالْعَفْوَ عَنْ زَلَّتِهِ (التَّجَاوُزَ عَنْ خَطِيئِهِ)؛ فَلَمْ يَزِدْ إِلَّا عِنَادًا وَإِصْرَارًا.

(٤) الْأَغْنِيَةُ الْأَخِيرَةُ

وَاقْتَرَبَ «بُرُونَسُ» مِنْ صَدِيقِهِ «قَيْصَرَ» مُسْتَعِظَفًا، رَاجِيًا أَنْ يَقْبَلَ التِّمَاسَ صَاحِبِهِ، وَيَرْجِعَ إِلَيْهِ أَخَاهُ مِنْ مَنَافَاهُ. فَقَالَ لَهُ: «لَيْسَ مِثْلُ «قَيْصَرَ» مَنْ يَلِينُ لِلرَّجَاءِ، أَوْ يَحُولُ عَنْ عَزْمِهِ. وَمَا كَانَ «قَيْصَرُ» لِيَنْقُضَ الْيَوْمَ مَا أَبْرَمَهُ بِالْأَمْسِ.» ثُمَّ اسْتَأْنَفَ «قَيْصَرُ» كَلَامَهُ، مَزْهُوًّا تَائِهًا، وَقَالَ: «إِنَّ نَجُومَ السَّمَاءِ تَظْهَرُ مُؤْتَلِقَاتٍ (تَبْدُو مُضِيئَةً مُلْتَمِعَةً)، وَلَكِنْ بَيْنَهَا نَجْمًا قُطْبِيًّا يَهْدِي الْحَاثِرِينَ، وَيَنْبُتُ ثَبَاتِ الرُّوَاسِي (الْجِبَالِ). كَذَلِكَ الرِّجَالُ: يَظْهَرُونَ وَقَدْ تَفَرَّقَتْ أَهْوَاؤُهُمْ، وَاخْتَلَفَتْ نَزَاعَتُهُمْ وَمَذَاهِبُهُمْ. وَلَكِنَّ «قَيْصَرَ رُومَةَ» — فِي هِمَّتِهِ السَّمَاءِ (الْعَالِيَةِ) — كَذَلِكَ النَّجْمِ الْقُطْبِيِّ فِي اللَّيْلَةِ الدِّيَجَاءِ (الشَّدِيدَةِ الظُّلْمَةِ)، فَلَا كِفَاءَ لَهُ (لَا نَظِيرَ). وَإِنَّ «قَيْصَرَ رُومَةَ» لَأَلْمَعِي (قَوِيٌّ الذِّكَا، صَادِقُ الْفِرَاسَةِ وَالظَّنِّ)، وَإِنَّهُ لَذُو مَضَاءٍ (صَاحِبُ قُوَّةٍ وَنَفَازٍ). فَإِنْ أَقْرَأَ أَمْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ صُرُوفُ الْقَضَاءِ (حَوَادِثُ الْأَيَّامِ) أَنْ تَرُدَّهُ عَنْهُ، وَتَقْفَهُ دُونَهُ.» ثُمَّ قَالَ:

هَذِي نَجُومُ السَّمَاءِ	مَنْثُورَةٌ فِي الْفَضَاءِ
يَشْعُ مِنْهَا ضِيَاءٌ	فِي سَائِرِ الْأَرْجَاءِ
تَدُورُ مُؤْتَلِقَاتٍ،	تَجْرِي لِغَيْرِ انْتِهَاءِ
وَتَمُّ — فِي الْقُطْبِ — نَجْمٌ	يَبْدُو لِعَيْنِ الرَّائِي
بِالنُّورِ يَهْدِي الْحَيَارَى	فِي اللَّيْلِ الظُّلْمَاءِ

ثَبُتْ ثَبَاتِ الرَّوَاسِي	بَاقِي بَقَاءِ السَّمَاءِ
وَفِي الرَّجَالِ الْوُفُ	مُفَرَّقُوا الْأَهْوَاءِ
مِثْلُ النُّجُومِ تَرَاءَتْ	مَوْفُورَةَ الْأَضْوَاءِ
لَكِنَّ «قَيْصَرَ رُومًا»	ذَا الْهَمَّةِ الشَّمَاءِ
يَسْمُو عَلَيْهِمْ جَمِيعًا	فِي رَفْعَةٍ وَأَعْتِلَاءِ
كَسَاطِعِ الْقُطْبِ يَهْدِي	فِي اللَّيْلَةِ الدِّيَجَاءِ
يَجِلُّ عَنْ كُلِّ شَبِيهِ	فَمَا لَهُ مِنْ كِفَاءِ!
لَا يَنْقُضُ النَّاسُ رَأْيَا	لِسَيِّدِ الْعُظَمَاءِ
الْأَلَمَعِيِّ الْمُقْدَى	الْأَوْحَدِيِّ الذِّكَاءِ
وَمَنْ كَ «قَيْصَرَ رُومًا»	فِي عَزْمَةٍ وَمَضَاءِ
إِنْ رَاحَ يُبْرِمُ أَمْرًا	أَعْيَا صُرُوفَ الْقَضَاءِ!

(٥) مَضْرَعُ «قَيْصَرَ»

وَكَانَتْ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ آخِرَةَ حَيَاةِ «قَيْصَرَ»، وَخَاتِمَةَ صَحِيفَتِهِ فِي الْوُجُودِ؛ فَمَا أَتَمَّهَا حَتَّى صَاحَ «كَسْكَ» ثَائِرًا: «تَكَلِّمِي الْآنَ، يَا يَدَيَّ...»
 ثُمَّ طَعَنَهُ بِخَنْجَرِهِ طَعْنَةً نَجْلَاءَ (وَاسِعَةً)، وَتَابَعَهُ رِفَاقُهُ بِخَنَاجِرِهِمْ. ثُمَّ سَدَّدَ «بُرُوتَسُ» طَعْنَةً إِلَى صَدِيقِهِ، فَذَهَلَ «قَيْصَرُ» مِمَّا رَأَى، وَقَالَ لـ «بُرُوتَسُ» مَدْهُوشًا: «حَتَّى أَنْتَ يَا «بُرُوتَسُ»! الْآنَ يَمُوتُ «قَيْصَرُ»!»
 ثُمَّ فَاضَتْ رُوحُ «قَيْصَرَ»: زَعِيمُ «رُومَةٍ» وَسَيِّدُهَا!

(٦) سَنَاعَةُ الْهَوْلِ

نُذِرَ شُيُوخُ «رُومَةٍ» وَسَرَائِثُهَا (أَعْيَانُهَا)، وَسَوَادُ أَهْلِهَا (عَامَّةُ شَعْبِهَا) وَجَمُهورُ سَاكِنِيهَا، وَاشْتَدَّ جَزَعُهُمْ لِمَضْرَعِ «قَيْصَرَ» الْعَظِيمِ، وَصَاحَ الْقَتْلَةُ هَاتِفِينَ بِاسْمِ الْحُرِّيَّةِ، لِيُخَفِّقُوا وَقَعَ الْمُصَابِ عَلَى قُلُوبِ النَّاسِ.



وَاشْتَدَّ هَيْاجُ الْمَدِينَةِ، وَاسْتَوَى الدُّعْرُ عَلَى الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْأَطْفَالِ جَمِيعًا، حَتَّى سَلَبَهُمُ الْخَوْفُ عُقُولَهُمْ؛ فَجَرَوْا مَشْدُوهِينَ ذَاهِلِينَ، وَصَاحُوا مِنْ فَرْطِ الْأَسَى وَالْخَوْفِ، فَمَلَأُوا الْفَضَاءَ بِصِيحَاتِهِمُ الْمَفْرَعَةِ.

وَلَمْ يَجِدِ الْمُؤْتَمِرُونَ — أَمَامَهُمْ — وَقْتًا يَتَشَاوَرُونَ فِيهِ؛ فَاقْتَرَحَ عَلَيْهِمْ «بُرُوتْس» أَنْ يُشْهِرُوا سُبُوفَهُمْ، وَيَغْمِسُوا سَوَاعِدَهُمْ فِي دِمَاءِ «قَيْصَر»، هَاتِفِينَ بِالسَّلَامِ وَالْحُرِّيَّةِ، مُتَغَنِّينَ بِمَجْدِ «رُومَةَ»، وَخَلَّاصِهَا مِنْ نَيْرِ الظُّلْمِ وَالْإِسْتِبْدَادِ.

(٧) مَقْدَمُ «أَنْطُونْيُوس»

وَعَلِمَ «أَنْطُونْيُوس» بِمَصْرَعِ «قَيْصَر». فَأَقْبَلَ عَلَى دَارِ النِّيَابَةِ مُسْرِعًا، وَتَظَاهَرَ أَمَامَ «بُرُوتَس» وَأَصْحَابِهِ بِقِلَّةِ الْمُبَالَاةِ بِمَا حَدَثَ، وَاثْبَتَ لَهُمْ أَنَّهُ مُجَدِّدُ عَهْدِهِ وَمَوَاضِيْعُهُ مَعَهُمْ، إِذَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَقْنَعُوهُ بِصَوَابِ مَا فَعَلُوهُ.

فَقَالَ لَهُ «بُرُوتَس»: «لَكَ عَلَيْنَا أَنْ نَشْرَحَ الْأَسْبَابَ الَّتِي حَفَزَتَنَا إِلَى الْفَتْكِ بِ«قَيْصَر». وَنَحْنُ وَاثِقُونَ أَنَّكَ سَتَرَى رَأْيَنَا؛ لِأَنَّ قُوَّةَ بُرْهَانِنَا، وَصَدَقَ حُجَّتِنَا: كَفِيلَانِ بِإِقْنَاعِ أَقْرَبِ النَّاسِ إِلَى «قَيْصَر» وَلَوْ كَانَ ابْنَهُ.»

وَنَظَرَ «أَنْطُونْيُوس»، فَرَأَى جُنَّةَ «قَيْصَر» هَامِدَةً مُضَرَّجَةً (مُلْطَخَةً) بِالِدَّمَاءِ؛ فَلَمْ يَتِمَّاكَ أَنْ يَحْزَنَ عَلَى صَدِيقِهِ الْحَمِيمِ، وَيُذْرِفَ الدَّمْعَ مِنْ عَيْنَيْهِ. وَلَكِنَّهُ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ أَدْرَكَ خَطَرَ الْمَوْقِفِ؛ فَاسْتَعَصَمَ بِالْحَزْمِ وَالْجَلَدِ، وَالتَفَتَ إِلَى «بُرُوتَس» وَرِفَاقِهِ، وَقَالَ: «إِذَا كُنْتُمْ حَاقِدِينَ عَلَيَّ؛ فَإِنِّي أَطْلُبُ إِلَيْكُمْ أَنْ تَقْتُلُونِي، وَتَرَوْوَا — مِنْ دَمِي — سُيُوفَكُمْ الَّتِي فَتَكَتْ بِ«قَيْصَر»!»

فَقَالَ لَهُ «بُرُوتَس»: «لَسْنَا نَشْكُ فِي إِخْلَاصِكَ لَنَا، يَا «أَنْطُونْيُوس». وَمَا نَحْنُ بِسَفَاحِينَ، وَلَا مَتَعَطِّشِينَ إِلَى الدَّمَاءِ. وَلَكِنَّا قَتَلْنَا «قَيْصَرَ» فِي سَبِيلِ الْوَطَنِ، مُنْتَصِرِينَ — بِذَلِكَ — لِلْحُرِّيَّةِ، وَلَمْ نَقْتُلْهُ لِبُغْضِ كَامِنٍ فِي نَفْسِنَا، أَوْ حِقْدٍ مُتَأَصِّلٍ فِي قُلُوبِنَا.»

(٨) خُطْبَةُ «بُرُوتَس»

فَقَالَ «أَنْطُونْيُوس»: «إِنِّي مُعَاهِدُكُمْ عَلَى الْوَفَاءِ؛ فَهَلْ تَأْذَنُونَ لِي أَنْ أَبْكِيَهُ، وَارْثِيَهُ، وَأُعَدِّدَ مَنَاقِبَهُ (أَذْكُرَ مَحَاسِنَهُ)؟ فَهُوَ صَدِيقٌ لَكُمْ وَلِي عَلَى السَّوَاءِ.»

فَقَالَ لَهُ «بُرُوتَس»: «قُلْ فِيهِ مَا شِئْتَ، بَعْدَ أَنْ أُهْدَى الْجُمْهُورَ النَّائِرُ الصَّاحِبَ، وَأُسَكَّنَ مِنْ رُوعِهِ (قَلْبِهِ).»

وَانْتَحَى «كَسْيَاس» بِصَاحِبِهِ «بُرُوتَس»، وَحَاوَلَ أَنْ يُثْنِيَ مِنْ عَزَمِهِ عَلَى مُسَالَمَةِ «أَنْطُونْيُوس»، وَيُحَذِّرُهُ الْإِنْخِدَاعَ بِمَا زَوَّرَهُ (زَيَّنَهُ) مِنْ زُخْرُفِ الْقَوْلِ (لِينِ الْكَلَامِ)؛ فَلَمْ يَسْمَعْ لَهُ «بُرُوتَس» قَوْلًا، وَاثْبَتَ لَهُ أَنَّ «أَنْطُونْيُوس» لَنْ يُسِيءَ إِلَيْهِمْ فِي خِطَابِهِ. وَخَتَمَ

«بُرُوتُس» جَوَّارُهُ قَائِلًا: «لَنْ يَجْرَوْ «أَنْطُونِيُوس» عَلَى اتِّهَامِنَا، وَلَنْ يَتَعَدَّى خِطَابُهُ رِثَاءَ «قَيْصَرٍ»، وَتَعْدَادَ مَنَاقِبِهِ (التَّمْدِيحُ بِخِلَالِهِ)، وَالتَّنَاءِ عَلَى أَخْلَاقِهِ.»
ثُمَّ افْتَرَقَ «بُرُوتُس» وَ«كُسيَاس»، لِيَخْطُبَا سَوَادَ الْجُمْهُورِ (عَامَّتَهُ)، وَيُهْدِثَا خَوَاطِرَهُ النَّائِرَةَ.
وَأَعْتَلَى «بُرُوتُس» مَنَصَّةَ الْخَطَابَةِ، فَصَاحَ فِي الْحَاضِرِينَ بِصَوْتٍ جَهَوْرِيٍّ (عَالٍ)، وَأَنْشَأَ يَقُولُ:

«لَقَدْ كَانَ «قَيْصَرٌ» — كَمَا عَلِمْتُمْ — رَجُلًا عَظِيمًا، كَبِيرَ الْقَلْبِ، مَوْفُورَ الْحَظِّ، وَلَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ أَكْثَرَ مِمَّا أَحْبَبْتُهُ أَنَا. وَلَكِنْ طَمَعَ «قَيْصَرٌ» هُوَ الَّذِي أَحْفَظُنِي عَلَيْهِ وَأَغْضَبَنِي، وَبَدَّلَ حُبِّيهِ (مَحَبَّتِي لَهُ) كَرَاهِيَةً وَمَقْتًا. لَقَدْ فَتَكْنَا بِهِ لِأَنَّهُ كَانَ طَمَاعًا. لَقَدْ حَاوَلَ أَنْ يَسْتَعْبِدَكُمْ — وَأَنْتُمْ أَحْرَارٌ — فَثَرْنَا — فِي وَجْهِهِ — انْتِصَارًا لِحُرِّيَّتِكُمْ، وَقَتَلْنَاهُ لِنُنْقِذَكُمْ مِنْ نَيْرِ الطُّغْيَانِ، وَنُخْلَصَكُمْ مِنْ بَرَائِثِ الظُّلْمِ (أَصَابِعِهِ). فَهَلْ أَثْمَنًا فِيمَا فَعَلْنَا؟ إِنْ كَانَ فِيكُمْ رَجُلٌ قَدْ بَلَغَ بِهِ الْعُقُوقُ لَوْطِنَهُ، وَالِاسْتِهَانَةُ بِحُرِّيَّتِهِ، حَدَّ السُّخْطِ عَلَى مُحَارَبَةِ الْإِسْتِعْبَادِ وَالذُّلِّ؛ فَلْيُكَاشِفْنَا بِرَأْيِهِ، وَلِيَتَكَلَّمْ أَمَامَنَا، وَلِيَتَهَمَّنَا بِأَنَّنَا قَدْ أَسَأْنَا فِيمَا فَعَلْنَا.»

فَصَفَّقَ الْجُمْهُورُ لِلْخَطِيبِ الْبَارِعِ الْمَفُوهِ: «بُرُوتُس»، وَأَعْجِبُوا بِفَصَاحَتِهِ وَقُوَّةِ حُجَّتِهِ، وَتَعَالَى هُتَافُ الْحَاضِرِينَ بِحَيَاتِهِ.

(٩) خُطْبَةُ «أَنْطُونِيُوس»

وظَهَرَ «أَنْطُونِيُوس» — حِينَنَدٍ — وَهُوَ يَحْمِلُ جُنَّةَ «قَيْصَرٍ». فَأَشَارَ «بُرُوتُس» إِلَى الْحَاضِرِينَ أَنْ يَكْفُوا عَنْ هُتَافِهِمْ، وَقَالَ لَهُمْ: «الْبُنُوا (ابْقُوا) فِي أَمَاكِنِكُمْ، لِيَسْمَعُوا رِثَاءَ «أَنْطُونِيُوس» لِصَاحِبِهِ، فَقَدْ أَذِنَّا لَهُ فِي ذَلِكَ.»
ثُمَّ خَرَجَ «بُرُوتُس»، وَتَرَكَ خَصْمَهُ «أَنْطُونِيُوس» يَخْطُبُ الْجُمْهُورَ، وَلَمْ يَذَرِ أَنَّهُ سَيُلْهَبُ نَارَ تَوْرَتِهِ، وَيَذْكِي ضِرَامَ حَقْدِهِ.



وَمَا ارْتَقَى «أَنْطُونْيُوسُ» الْمِنْبَرَ حَتَّى قَالَ:

«أَصْدِقَائِي وَأَصْحَابِي أَبْنَاءَ «رُومَةَ»: أَعِيرُونِي أَسْمَاعَكُمْ؛ فَقَدْ جِئْتُ لِأَحْتَفِلَ بِدَفْنِ «قَيْصَرَ»، وَلَمْ أَجِئْ لِأَمْتَدِّحَ فِعَالَهُ، وَأُثْنِيَ عَلَى مَزَايَاهُ؛ فَإِنَّ عَمَلَ الْإِنْسَانِ — وَحْدَهُ — أَحْسَنُ ثَنَاءٍ يُخَلِّدُهُ، وَيَرْفَعُ مِنْ قَدْرِهِ، إِنْ كَانَ صَالِحًا. لَقَدْ حَدَّثْتُكُمْ «بُرُوتُسَ» أَنَّ «قَيْصَرَ» كَانَ طَمَّاعًا، وَ«بُرُوتُسَ» رَجُلٌ شَرِيفٌ. فَإِذَا صَحَّ مَا يَقُولُ «بُرُوتُسُ»؛ فَقَدْ لَقِيَ «قَيْصَرُ» جَزَاءَهُ الْعَادِلَ، وَاسْتَحَقَّ الْمَوْتَ، بِمَا قَدَّمْتُ يَدَاهُ مِنْ شُرُورٍ وَأَثَامٍ.

لَقَدْ أَدِنَ لِي «بُرُوتُسُ» فِي أَنْ أَرِثِي «قَيْصَرَ»، وَ«بُرُوتُسَ» رَجُلٌ شَرِيفٌ. وَقَدْ كَانَ «قَيْصَرُ» نَعَمَ الصَّدِيقُ الْوَفِيُّ الْعَادِلُ الرَّحِيمُ، وَلَكِنَّ «بُرُوتُسَ» يَقُولُ: «إِنَّ «قَيْصَرَ» رَجُلٌ طَمَّاعٌ.» وَ«بُرُوتُسَ» رَجُلٌ شَرِيفٌ!

لَقَدْ كَانَ «قَيْصَرٌ» يُغْدِقُ عَلَيْكُمُ الْمَالَ (يُفِيضُهُ بِلَا حِسَابٍ)، وَيَبْكِي رَحْمَةً بِالْفَقِيرِ، وَيُؤْسِي الضَّعِيفَ. فَهَلْ تَعُدُّونَ مِثْلَ هَذَا الرَّجُلِ طَمَاعًا؟ وَلَكِنَّ «بُرُوتَسَ» يَقُولُ: «إِنَّ «قَيْصَرَ» كَانَ طَمَاعًا.» وَ«بُرُوتَسُ» رَجُلٌ شَرِيفٌ! لَقَدْ قَدَّمْتُ التَّاجَ لـ«قَيْصَرَ» — مَرَّاتٍ ثَلَاثًا — فَرَفَضَهُ «قَيْصَرٌ»، وَلَمْ يَقْبَلْهُ. فَهَلْ كَانَ «قَيْصَرٌ» طَمَاعًا؟ وَلَكِنَّ «بُرُوتَسَ» يَقُولُ: «إِنَّ «قَيْصَرَ» كَانَ طَمَاعًا.» وَ«بُرُوتَسُ» رَجُلٌ شَرِيفٌ! لَسْتُ أَكْذِبُ «بُرُوتَسَ» فِيمَا يَقُولُ، وَلَكِنِّي أَكْتَفِي بِتَقْرِيرِ مَا أَعْرِفُهُ — وَنَعْرِفُونَهُ — عَنْ «قَيْصَرَ»:

لَقَدْ أَحْبَبْتُمُ «قَيْصَرَ» — كَمَا أَحَبَّكُمْ — فَلِمَاذَا أَحْبَبْتُمُوهُ، وَأَخْلَصْتُمْ لَهُ، وَهْتَفْتُمْ بِاسْمِهِ؟ وَكَيْفَ لَا تَبْكُونَ الْيَوْمَ مَصْرَعٍ مِنْ أَحْبَبْتُمُوهُ وَأَحَبَّكُمْ؟ هَا هِيَ ذِي وَصِيَّةٍ «قَيْصَرُ»، الَّتِي أَوْدَعَهَا حُبَّهُ وَإِخْلَاصَهُ لَكُمْ؛ فَاهِ لَوْ عَلِمْتُمْ مَا تَحْوِيهِ! إِذَنْ لَمَزَقَ الْأَسَى قُلُوبَكُمْ، وَقَطَعَ الْحُزْنَ أَفْئِدَتَكُمْ...!»

(١٠) وَصِيَّةُ «قَيْصَرَ»

وَمَا وَصَلَ «أَنْطُونْيُوسُ» إِلَى هَذَا الْحَدِّ مِنْ خُطْبَتِهِ، حَتَّى تَهْدَجَ صَوْتُهُ (ضَعُفَ وَارْتَعَشَ)، وَبَكَى؛ فَاسْتَبَكِي سَامِعِيهِ، وَصَاحُوا جَمِيعًا، يَطْلُبُونَ إِلَيْهِ أَنْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ وَصِيَّةَ «قَيْصَرَ». فَقَالَ «أَنْطُونْيُوسُ»: «كَلَّا، لَا سَبِيلَ إِلَى هَذَا، فَإِنِّي أَشْفِقُ (أَخَافُ) عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْقَطَعَ قُلُوبُكُمْ حُزْنًا، وَتَذُوبَ أَكْبَادُكُمْ أَسَى، مَتَى سَمِعْتُمْ وَصِيَّةَ «قَيْصَرَ»!»
فَصَاحَ بِهِ الْحَاضِرُونَ هَاتِفِينَ: «الْوَصِيَّةُ! الْوَصِيَّةُ! لَا بَدْ أَنْ تَسْمِعَنَا وَصِيَّةَ «قَيْصَرَ»!»
فَقَالَ «أَنْطُونْيُوسُ»: «إِذَا سِتُّمْ أَنْ تَسْمَعُوا مِنِّي وَصِيَّةَ «قَيْصَرَ» فَتَعَالَوْا — أَيُّهَا الْإِخْوَانُ — وَالتَّفُؤُوا حَوْلَ جُثَّةِ عَظِيمِنَا الرَّاجِلِ، لِأَرِيكُمْ مَاذَا فَعَلَ أَصْحَابُ «قَيْصَرَ»: صَاحِبُ الْوَصِيَّةِ.»

ثُمَّ تَرَكَ «أَنْطُونْيُوسُ» الْمِنَصَّةَ، وَرَفَعَ عَبَاءَةَ «قَيْصَرَ» الَّتِي ارْتَدَّاهَا يَوْمَ انْتِصَارِهِ الْمَجِيدِ، ثُمَّ قَالَ: «لَيْسَ لِي مِثْلُ فَصَاحَةِ «بُرُوتَسَ» وَلِبَاقَتِهِ، وَظُرْفِهِ وَفِطْنَتِهِ. وَلَكِنْ حَسْبِي أَنْ أَنْهِيَ إِلَيْكُمْ فَصْلَ الْخُطَابِ (الْقَوْلِ الْحَاسِمِ)، حِينَ أَرِيكُمْ جِرَاحَ «قَيْصَرَ» الْعَظِيمِ، الَّذِي أَخْلَصَ لَكُمْ الْإِخْلَاصَ كُلَّهُ، وَمَحَضَكُمْ (أَصْفَى لَكُمْ) الْحُبَّ وَالْوَلَاءَ. فَإِنَّ هَذِهِ الْجِرَاحَ وَحْدَهَا لَتَنْطِقَ بِأَبْلَغِ لِسَانٍ، فَتَثِيرُ شَكْوَاهَا صَمَّ الْجَمَادِ، وَتَحَرِّكُ أَحْجَارَ «رُومَةَ» جَمِيعًا.

انْظُرُوا إِلَى هَذَا الْجُرْحِ الدَّامِي، تَرَوْا طَعْنَةَ «كَسْكَ»، وَتَرَوْا إِلَى جَانِبِهَا طَعْنَةَ «بُرُوتَسْ»: الصَّدِيقُ الْحَبِيبُ إِلَى نَفْسِ «قَيْصَر»، وَالصَّفِيُّ الْوَفِيُّ الَّذِي اخْتَارَهُ «قَيْصَرُ»! وَهَا هِيَ ذِي طَعْنَةَ الطَّعَنَاتِ الَّتِي مَزَقَتْ قَلْبَهُ الشُّجَاعُ!

وَمَا بَلَغَ «أَنْطُونْيُوسُ» هَذَا الْحَدَّ مِنْ خُطْبَتِهِ، حَتَّى ثَارَ الشَّعْبُ، وَاسْتَوَلَى عَلَيْهِ الْغَضَبُ، وَغَمَرَتْهُ مَوْجَةٌ مِنَ الْحَنَقِ وَالْغَيْظِ. فَصَاحَ الْجَمْعُ مُهْتَاجِينَ: «الْوَيْلُ! لـ«بُرُوتَسْ» وَرِفَاقِهِ. أَمَا وَاللَّهِ لِنَزْلُزَلَنَ دَارَهُ، وَلَنَحْرَقَنَّ أَصْحَابَهُ الْغَادِرِينَ!»

فَقَالَ «أَنْطُونْيُوسُ»: «أَنَاةٌ وَمَهْلًا — يَا بَنِي وَطَنِي — وَصَبْرًا، فَإِنَّكُمْ لَمَّا تَسْمَعُوا وَصِيَّةَ «قَيْصَرِ»!

فَصَاحُوا: «الْوَصِيَّةُ! الْوَصِيَّةُ! صَدَقَتْ — أَيُّهَا النَّبِيلُ — فَاثْلُ عَلَيْنَا وَصِيَّةَ «قَيْصَرِ»! فَقَالَ «أَنْطُونْيُوسُ»: «هَأَكُمُ اقْرَأُوا وَصِيَّتَهُ، وَعَلَيْهَا خَاتَمُهُ، وَانْظُرُوا مَا تَحْوِيهِ. اسْمَعُوا مَا كَتَبَهُ لَكُمْ. لَقَدْ وَهَبَ لَكُمْ — فِي هَذِهِ الْوَصِيَّةِ — كُلَّ مَا يَمْلِكُ مِنْ مَالٍ، وَأَوْرَثَكُمْ فِيهَا كُلَّ مَا فِي حُوزَتِهِ مِنْ حَدَائِقَ وَمُنْتَزَهَاتٍ! هَذَا هُوَ «قَيْصَرُ» الَّذِي عَدَرُوا بِهِ؛ فَهَلْ يَجُودُ الزَّمَنُ بِمِثْلِهِ؟»

فَصَاحُوا مَحْزُونِينَ: «كَلَّا، كَلَّا! فَإِنَّ الدَّهْرَ بِمِثْلِهِ لَصَنِينٌ (بَخِيلٌ)!»

(١١) مَقْدَمُ «أُكْتَفْيُوسِ»

وَهَكَذَا أَفْلَحَ «أَنْطُونْيُوسُ» فِي إِثَارَةِ الْجُمْهُورِ، وَإِلْهَابِ نَارِ الثَّوْرَةِ؛ لِيُصْلِيَ (لِيُحْرِقَ) بِهَا أَعْدَاءَ «قَيْصَرِ». فَانْدَفَعَ سَوَادُ الرُّومَانِيِّينَ (عَامَّتُهُمْ)؛ لِيَفْتِكُوا بِقَاتِلِي «قَيْصَرِ» وَأَنْصَارِهِمْ. وَنَمَّةُ ارْتِاحٍ «أَنْطُونْيُوسُ»، وَتَنَفَّسَ الصُّعْدَاءُ (وَالصُّعْدَاءُ: التَّنَفُّسُ الطَّوِيلُ مِنْ هَمٍّ أَوْ تَعَبٍ)، وَقَدِ اطْمَأَنَّ قَلْبُهُ، بَعْدَ أَنْ أَدْرَكَ مَا يَرْمِي إِلَيْهِ مِنْ تَأْلِيلِ الْجُمْهُورِ عَلَى خُصُومِهِ وَأَعْدَائِهِ.

وَسُرَّعَانَ مَا وَلَّى «بُرُوتَسْ» وَ«كَسْيَاسُ» فِرَارًا مِنَ النَّائِرِينَ، وَخَرَجَا مِنَ الْمَدِينَةِ هَائِمِينَ عَلَى وَجْهَيْهِمَا (سَائِرِينَ عَلَى غَيْرِ هُدًى، لَا يَعْلَمَانِ لِهَمًّا وَجْهَةً).

وَبَعْدَ قَلِيلٍ، عَلِمَ «أَنْطُونْيُوسُ» بِمَقْدَمِ صَدِيقِهِ «أُكْتَفْيُوسُ» إِلَى «رُومَةِ»؛ فَأَيَّقَنَ — حِينئِذٍ — بِالْإِنْتِصَارِ عَلَى الْأَعْدَاءِ، وَحَمِدَ اللَّهَ عَلَى مَقْدَمِ «أُكْتَفْيُوسِ» فِي تِلْكَ السَّاعَةِ الْحَرْجَةِ (الْخَطِيرَةِ)؛ لِتَتِمَّ عَلَى يَدَيْهِمَا هَزِيمَةُ الْقَتْلَةِ الْغَادِرِينَ.

الفصل الرابع

(١) لقاء الصديقين

لَمْ يَضَعْ «أَنْطُنْيُوسُ» شَيْئًا مِنْ وَقْتِهِ سُدَى (بَلَا فَائِدَةٍ)، بَلْ أَسْرَعَ إِلَى لِقَاءِ صَدِيقِهِ «أَكْتَفْيُوسَ»، وَأَفْضَى إِلَيْهِ بِكُلِّ مَا حَدَثَ فِي أَثْنَاءِ غَيْبَتِهِ عَنْ «رُومَةَ». وَدَارَ بَيْنَهُمَا حَوَارٌ طَوِيلٌ، ثُمَّ اجْتَمَعَ رَأْيَاهُمَا عَلَى أَنْ يُسْرِعَا إِلَى حَشْدِ جَيْشٍ عَظِيمٍ — مِنْ أَنْصَارِهِمَا — لِمُهَاجَمَةِ «بُرُوتَسَ» وَ«كَسْيَاسَ» اللَّذَيْنِ نَشَطَا إِلَى النَّضَالِ، وَأَسْرِعَا إِلَى الْقِتَالِ، وَجَمَعَا حَوْلَهُمَا جَيْشًا كَبِيرًا، وَلَمْ يَأْلُوا جُهْدًا (لَمْ يُقْصِرَا) فِي جَمْعِ أُلُوفٍ مُؤَلَّفَةٍ — مِنَ الْجُنُودِ — لِيُغْزُوا أَصْحَابَ «قَيْصَرَ»، وَالْقَضَاءِ عَلَى كُلِّ مَنْ تُحَدِّثُهُ نَفْسُهُ بِالْإِنْتِصَارِ لِعَظِيمِ «رُومَةَ» الرَّاحِلِ.

فَأَقْرَهُ «أَكْتَفْيُوسُ» عَلَى رَأْيِهِ، وَأَعَدَّ عُدَّتَهُ، وَجَمَعَ جَيْشَهُ، وَسَارُوا مُجِدِّينَ؛ لِيَنْكِلُوا بِالْغَادِرِينَ، وَيَنَازِلُوا لـ «قَيْصَرَ» (يَنْتَقِمُوا لَهُ) مِنْ قَاتِلِيهِ.

(٢) بَيْنَ «بُرُوتَسَ» وَ«كَسْيَاسَ»

وَنَشَبَ خِلَافٌ (نَارٌ وَاشْتَبَكَ) بَيْنَ «كَسْيَاسَ» وَ«بُرُوتَسَ»، فَكَادَتْ تَنْهَبُ رِيحُهُمَا (كَادَا يَفْنِيَانِ)، وَأَوْشَكَ الْخِلَافُ أَنْ يَقْضِيَ عَلَيْهِمَا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ الْعَصِيبِ (الشَّدِيدِ). وَكَانَ مَبْعَثُ هَذَا الْخِلَافِ أَنَّ «بُرُوتَسَ» قَدْ أَصَرَ عَلَى مُعَاقَبَةِ أَحَدِ أَنْصَارِ «كَسْيَاسَ» لِاعْوِجَاجِ سَيْرِهِ، وَقَبُولِهِ الرِّشْوَةِ. فَبَعَثَ إِلَيْهِ «كَسْيَاسُ» مُتَشَفِّعًا فِيهِ؛ فَلَمْ يَقْبَلْ «بُرُوتَسَ» شَفَاعَتَهُ. فَأَسْرَهَا

«كَسْيَاسُ» فِي نَفْسِهِ، وَقَبِضَ يَدَهُ عَنْ إِمْدَادِ «بُرُوتَسَ» بِالْمَالِ. فَلَمَّا التَقَى الصَّدِيقَانِ، بَدَأَ «كَسْيَاسُ» صَدِيقَهُ «بُرُوتَسَ» بِالْعِتَابِ لِرَفُضِ شَفَاعَتِهِ.

فَقَالَ لَهُ «بُرُوتَسُ»: «مَا كَانَ أَجْدَرَكَ أَنْ تُبْعِدَ نَفْسَكَ عَنْ مَوَاطِنِ الرَّيْبِ (أَمَا كِنْ التَّهْمِ)، فَلَا تُعَرِّضْهَا لِلشَّفَاعَةِ فِي مِثْلِ هَذَا الْأَتِيمِ الْمُرْتَشِي!»

فَقَالَ لَهُ «كَسْيَاسُ»: «مَا كَانَ أَجْدَرَكَ أَنْ تَتَغَاصَى (تَتَسَمَّحَ) عَنِ الْمُحَاسَبَةِ عَلَى الصَّغَائِرِ، وَالْعِقَابِ عَلَى الْهَوَاتِ (الذُّنُوبِ الْيَسِيرَةِ) فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأَوْقَاتِ الْعَصِيبَةِ!»
فَقَالَ «بُرُوتَسُ»: «إِنَّ مِثْلِي خَلِيقٌ بَانَ يَزِنُ بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ (الْمِيزَانِ الْعَادِلِ)، وَأَنْ يُعَاقِبَ الْمُسِيءَ عَلَى إِسَاءَتِهِ، وَيَجْزِيَ الْمُحْسِنَ عَلَى إِحْسَانِهِ. وَلَكِنَّكَ تَتَغَاصَى عَنْ أُمَثَالِ هَذِهِ الرِّلَاتِ (السَّقَطَاتِ وَالْغَلَطَاتِ) لِأَنَّكَ مُلَوِّثُ الْيَدِ، مُتَّهَمٌ بِإِسْنَادِ الْمَنَاصِبِ الرَّفِيعَةِ إِلَى غَيْرِ الْأَكْفَاءِ الْمُسْتَحِقِّينَ، طَمَعًا فِي مَالِهِمْ، وَاسْتِجْلَابًا لِرِفْدِهِمْ (طَلَبًا لِمَا يُعْطُونَهُ إِيَّاكَ مِنَ الْعَطَايَا).»

فَقَالَ «كَسْيَاسُ»: «الْمِثْلِي يُقَالُ هَذَا الْكَلَامُ؟ أَتَقْبَلُ فِي نَزَاهَتِي مَطْعَنًا؟ أَمَا — وَاللَّهِ — لَوْ قَالَهَا غَيْرُكَ لَكَانَ لِي مَعَهُ شَأْنٌ آخَرُ، وَلَكَانَتْ آخِرُ كَلِمَةٍ تَخْرُجُ مِنْ فِيهِ (فَمِهِ)!»
فَقَالَ «بُرُوتَسُ»: «أَمَا — وَاللَّهِ — لَوْ غَيْرُ «كَسْيَاسَ» اقْتَرَفَ (ارْتَكَبَ) مِثْلَ هَذَا الْإِثْمِ، لَأَسْتَحَقَّ مِنِّي أَعْدَلَ الْقِصَاصِ (الْجَزَاءِ وَالْعُقُوبَةِ).»

فَصَاحَ «كَسْيَاسُ»: «هَلْ بَلَغَ الْأَمْرُ حَدَّ الْقِصَاصِ؟»
فَقَالَ «بُرُوتَسُ»: «أَنْسَيْتَ مُنْتَصَفَ مَارَسَ؟ خَبَّرَنِي: فِي أَيِّ سَبِيلٍ قَتَلْنَا «قَيْصَرَ»؟ أَلَيْسَ فِي سَبِيلِ الْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ قَتَلْنَاهُ؟ فَكَيْفَ نَغْتَالُ سَيِّدَ «رُومَةَ» وَنَفْتِكُ بِهِ، مِنْ أَجْلِ ذَنْبٍ نَغْفِرُهُ لِمِثْلِكَ وَلِمِثْلِ قَوَادِكِ الْمُرْتَشِينَ؟ قُلْ لِي: كَيْفَ اتَّغَاصَى عَنِ اللُّصُوصِ، وَأَصْفَحَ عَنِ الْأَكْثَمَةِ، وَأَخُونُ وَطَنِي، وَأَخْفِرُ عَهْدِي (أَنْقُضُهُ)، وَأَعْقُ صَمِيرِي؟ خَبَّرَنِي: كَيْفَ أَقْبَلُ شَفَاعَتَكَ فِي مُجْرِمٍ أَتِيمٍ؟ إِنِّي لَأَوْثِرُ أَنْ أُمْسَخَ كُلِّبًا عَلَى أَنْ أَكُونَ رُومَانِيًّا أَتِمًّا!»

فَقَالَ «كَسْيَاسُ»: «أَلَا لَا تُحَاوِلَنَّ أَنْ تَأْخُذَنِي بِمِثْلِ هَذِهِ الْعِبَارَاتِ الْخَادِعَةِ، وَتَسْحَرَنِي بِتِلْكَ الْأَسَالِيبِ الْخَلَابَةِ! فَإِنِّي لَنْ أَحْتَمِلَ مِنْكَ هَذِهِ الْإِهَانَةَ، وَلَنْ أَصْبِرَ عَلَى تَطَاوُلِكَ بَعْدَ الْآنَ! أَنْسَيْتَ أَنَّي أَقْدَمُ مِنْكَ عَهْدًا بِالْجُنْدِيَّةِ، وَأَوْفَرُ مِنْكَ تَجْرِبَةً؟ فَكَيْفَ تَلْصِقُ بِي مِثْلَ هَذِهِ الشُّنَعِ (الْفَضَائِحِ)؟»

فَقَالَ «بُرُوتَسُ»: «أَقْصِرْ (كُفَّ عَنِ الْكَلَامِ)، فَمَا أَنْتَ بِذَاكَ!»

فَقَالَ «كَسْيَاسُ»: «حَذَارِ أَنْ تَمْتَحِنَ صَرِي، يَا «بُرُوتْسُ»؛ فَمَا أَنَا بِغَافِرٍ لَكَ إِسَاءَةً
بَعْدَ هَذِهِ. وَمَا أَجْدَرُكَ أَنْ تُؤَثِّرَ السَّلَامَةَ وَالْعَافِيَةَ!»
فَقَالَ «بُرُوتْسُ»: «مَا أَحْقَرُ وَعِيدِكَ، وَمَا أَعْجَزَكَ عَنْ تَحْقِيقِ هَذَا الْهَدْيَانِ!»

(٣) جِوَارُ صَاخِبُ

وَهُنَا ثَارَ «كَسْيَاسُ»، وَاشْتَدَّ غَيْظُهُ، وَنَشَبَتْ مُلَاحَاةٌ (ثَارَتْ مُشَاتِمَةٌ) صَاحِبَةً بَيْنَ
الصَّدِيقَيْنِ. فَقَالَ «كَسْيَاسُ» مُهْتَاجًا: «كَيْفَ اجْتَرَأْتَ عَلَيَّ، وَزَيَّنَ لَكَ الْغُرُورُ أَنْ تَرْكَبَ
هَذَا الْمَرْكَبَ الْوَعَرَ (الصَّعْبَ)؟ إِنَّنِي لَا أَكَادُ أَصْدُقُ مَا تَسْمَعُهُ أَدْنَايَا!»
فَقَالَ «بُرُوتْسُ»: «خُذْهَا كَلِمَةً حَاسِمَةً: أَتَرَانِي أَفْرَقَ (أَتَطْنُنِي أَخَافُ) وَأَجْزَعُ لَصَخَبٍ
أَحْمَقٍ، أَوْ هَدْيَانٍ مَجْنُونٍ؟»

فَقَالَ «كَسْيَاسُ»: «يَا لِلَّهِ! كَيْفَ أَحْتَمِلُ هَذِهِ الْجُرْأَةَ؟»
فَقَالَ «بُرُوتْسُ»: «مَا أَجْدَرُكَ أَنْ تَسْمَعَ أَضْعَافَ مَا سَمِعْتَ، حَتَّى تَنْشَقَّ مَرَارَتُكَ
غَيْظًا، وَيَنْفَطِرَ قَلْبُكَ حُزْنًا! وَمَا أَدْرِي: كَيْفَ سَوَّلَتْ (زَيَّنَتْ) لَكَ نَفْسُكَ أَنْ تُفَاجِرَنِي
وَتُكَاثِرَنِي مَنْ غَيْرِ أَنْ تَخْشَى عَاقِبَةَ هَذَا الطَّيِّشِ؟ أَلَمْ يَكُنْ أَحَجَى (أَجْدَرُ وَأَوْلَى) بِكَ،
وَأَهْدَى لَكَ: أَنْ تَرْعَدَ وَتَتَوَرَّ عَلَى خَدَمِكَ وَأَرْقَائِكَ؟ إِنَّكَ — لَوْ فَعَلْتَ — لَرَأَيْتَ فَرَايَصَهُمْ
تَرْتَعِدُ، خَوْفَ تَهْدِيدِكَ، وَرَهْبَةً وَعِيدِكَ (وَالْفَرَايِصُ: هِيَ مَا بَيْنَ الْجُنُوبِ وَالْأَكْتَافِ). أَمَّا أَنَا
فَلَا تَخَذَنَكَ — مُنْذُ الْآنَ — ضُحْكَةً (وَهُوَ مَا يُضْحِكُ مِنْهُ)، وَلَا لَهْوَنَ بِكَ مَا حَبِيبْتُ؛ لِأَتَفَكَّهُ
بِغَضَبِكَ، وَأَرْوِّحَ عَنْ نَفْسِي بِإِيْلَامِكَ وَتَنْغِيصِ عَيْشِكَ!»

فَقَالَ «كَسْيَاسُ»: «مَا أَرَاكَ إِلَّا مُتَمَادِيًا فِي الْإِسَاءَةِ!»
فَقَالَ «بُرُوتْسُ»: «لَقَدْ فَاجَرْتَنِي بِأَنَّكَ أَجَلَدُ مِنِّي عَلَى الْقِتَالِ وَأَقْوَى، وَزَعَمْتَ أَنَّكَ
أَخْبَرُ بِالْحَرْبِ وَأَدْرَى؛ فَهَلَّا حَقَّقْتَ مَا زَعَمْتَ وَأَرَيْتَنِي كَيْفَ بَصْرُكَ بِالْعِرَاكِ، وَمَعْرِفَتُكَ
بِالْمُحَارَبَةِ؟»

فَقَالَ «كَسْيَاسُ»: «مَا أَكْثَرَ مَا تَتَجَنَّى عَلَيَّ، يَا «بُرُوتْسُ» (مَا أَكْثَرَ مَا تَنْسِبُهُ إِلَيَّ مِمَّا
لَمْ يَقَعْ مِنِّي)! فَقَدْ قُلْتُ لَكَ: إِنَّنِي أَقْدَمُ عَهْدًا، وَأَوْفَرُ تَجْرِبَةً، وَلَمْ أَقُلْ: إِنَّنِي أَشْجَعُ مِنْكَ
وَأَقْدَرُ.»

فَقَالَ «بُرُوتْسُ»: «لَوْ قُلْتَهَا لَمَا أَبْهَتْ لَكَ (لَمَا اهْتَمَمْتُ بِكَ)، وَلَا أَقَمْتُ لِمَا تَقُولُ وَزُنًا!» فَقَالَ «كَسْيَاسُ»: «إِنَّ «قَيْصَرَ» نَفْسُهُ مَا كَانَ لِيَجْتَرِيَ عَلَيَّ — فِي حَيَاتِهِ — فَيَفْعَلَ مِثْلَ مَا فَعَلْتَ!»

فَقَالَ «بُرُوتْسُ»: «هُوَّنْ عَلَيْكَ؛ فَإِنَّكَ لَمْ تَكُنْ لَتَجْرُوَ عَلَى اسْتِثَارَةِ «قَيْصَرَ» وَإِعْضَابِهِ، وَلَوْ عَرَّضَ حَيَاتَكَ لِلتَّلَفِ.»

فَقَالَ «كَسْيَاسُ»: «إِنَّ لِكُلِّ بَدَايَةِ نَهَايَةٍ، وَإِنَّ لِلْحِلْمِ غَايَةً لَا سَبِيلَ إِلَى تَجَاوُزِهَا. وَمَا أَخَوْفَنِي أَنْ أَقْدِمَ عَلَى أَمْرٍ جَلِيلٍ (عَظِيمٍ خَطِيرٍ) أَنْدُمَ عَلَيْهِ بَعْدًا!»

فَقَالَ «بُرُوتْسُ»: «لَا عَلَيَّ (لَا ضَيْرٌ وَلَا خَوْفٌ مِنْ وَعِيدِكَ)، فَإِنِّي — بِمَا لِي مِنَ الشَّرَفِ وَالنَّزَاهَةِ — لَفِي حِصْنٍ حَصِينٍ، وَلَنْ يَبْلُغَ وَعِيدُكَ مِنِّي إِلَّا مَا تَبْلُغُ الرِّيحُ مِنْ ذُرْوَةِ الْجَبَلِ! أَتَذْكُرُ كَيْفَ ضَنْنْتَ عَلَيَّ بِالْمَالِ أَنْفَقُهُ عَلَى جَيْشِي؟»

فَقَالَ «كَسْيَاسُ»: «مَا أَذْكُرُ أَنَّيَ ضَنْنْتَ عَلَيْكَ بِشَيْءٍ مِمَّا تَطْلُبُ، وَلَكِنَّهَا حَمَاقَةُ الرُّسُولِ، وَأَقْنُ رَأْيِهِ (سَوْءُ تَدْبِيرِهِ). وَمَا كَانَ أَجْدَرَكَ — إِنْ كُنْتَ صَدِيقًا — أَنْ تَغْفِرَ لَصَدِيقِكَ هَوَاتِهِ، وَتَتَجَاوَزَ عَنْ إِسَاءَاتِهِ؛ فَإِنَّ عَيْنَ الْحُبِّ عَمِيَاءُ، لَا تَنْظُرُ إِلَى الْمَسَاوِيِّ وَالْعُيُوبِ.» فَقَالَ «بُرُوتْسُ»: «إِنَّ عَيْنَ الرِّيَاءِ وَالنَّفَاقِ هِيَ — وَحْدَهَا — الَّتِي تَعْمَى عَنِ الْغُلَطِ، وَلَا تَرَى الْعُيُوبَ، وَلَوْ عَظُمَتْ حَتَّى أَصْبَحَتْ مِثْلَ الْجَبَلِ.»

(٤) صَلُحُ الصَّدِيقَيْنِ

فَقَالَ «كَسْيَاسُ» مُنَآلَمًا: «هَلُمَّ يَا «أَنْطُونْيُوسُ» وَيَا «أُكْتَفْيُوسُ»، وَتَعَالَيَا إِلَى «كَسْيَاسِ»، فَاقْتُلَاهُ، وَأَزْهَقَا رُوحَهُ؛ فَقَدْ مَلَّ الْبَقَاءَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، بَعْدَ أَنْ تَغَيَّرَ عَلَيْهِ قَلْبُ صَفِيهِ الْحَبِيبِ «بُرُوتْسِ»، وَتَنَكَّرَ لَهُ أَوْفَى النَّاسِ، وَأَبْرَهُمْ بِهِ.

أَلَا لَا خَيْرَ فِي الْحَيَاةِ — أَيُّهَا الصَّدِيقُ — بَعْدَ أَنْ فَسَدَ مَا بَيْنَنَا مِنْ حُبٍّ وَإِخْلَاصٍ. فَهَآكَ خِنْجَرِي، فَأَغْمِدْهُ فِي قَلْبِي، وَأَرْحِنِي مِنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ!»

فَهَشَّ لَهُ «بُرُوتْسُ» وَبَشَّ، وَقَالَ لَهُ: «أَغْمِدْ خِنْجَرَكَ — أَيُّهَا الصَّدِيقُ — فَإِنِّي مُتَجَاوِزٌ لَكَ عَنْ كُلِّ مَا حَدَثَ، وَمُعْتَذِرٌ لَكَ مِنْ كُلِّ إِسَاءَةٍ بَدَرْتُ مِنِّي. وَلَتَكُنْ عَلَى ثِقَةٍ بِأَنَّ قَلْبِي لَا يَحْمِلُ حَقْدًا وَلَا ضِغْنًا: فَهُوَ كَالرَّزْدِ: إِذَا أَوْرَيْتَهُ (قَدَحْتَ بِهِ لِتُخْرِجَ نَارَهُ) أُرْسَلَ شَرَارَةٌ ضَّيْلَةً الْخَطَرِ (حَقِيرَةً الشَّأْنِ)، ذَاهِبَةً فِي الْهُوَاءِ، ثُمَّ لَا يَلْبَثُ الرِّزْدُ أَنْ يَعُودَ كَمَا كَانَ.»

وَهَكَذَا تَصَافَحَ الصَّدِيقَانِ، وَعَادَ إِلَى قَلْبَيْهِمَا الصَّفَاءُ، وَشَدَّ كُلُّ مِنْهُمَا عَلَى يَدِ الْآخَرِ، مُجَدِّدِينَ الْعَهْدَ عَلَى الْوَفَاءِ.

وَقَدْ حَزَنَ «كَسْيَاسُ» حِينَ أَخْبَرَهُ «بُرُوتُسُ» أَنَّ مَبْعَثَ آلامِهِ وَحَنَقِهِ عَلَيْهِ، مَا بَلَغَهُ عَنْ مَصْرَعِ زَوْجِهِ «يُرْشَا». فَقَدْ عَلِمَ — فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ — أَنَّ غِيَابَهُ قَدْ أَضْنَى جِسْمَهَا، وَأَذْهَلَهَا مَا رَأَتْهُ مِنْ تَأَلُّبِ أَعْدَائِهِ، وَاجْتِمَاعِهِمْ عَلَيْهِ؛ فَقَتَلَتْ نَفْسَهَا إِشْفَاقًا عَلَى «بُرُوتُسِ»، حَتَّى لَا تَرَى — بِعَيْنَيْهَا — مَصْرَعَهُ الْوَشِيكَ.

فَشَارَكَهُ «كَسْيَاسُ» فِي حُزْنِهِ، وَأَسَاهُ فِي مُصَابِهِ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: «لَمْ يَبْقَ أَمَامَنَا إِلَّا الْجِدُّ وَالْإِقْدَامُ، حَتَّى لَا يَدْهَمَنَا الْأَعْدَاءُ.»
ثُمَّ وَدَعَ كُلُّ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ، عَلَى أَنْ يَلْتَقِيَا فِي الْغَدِ.

(٥) طَيْفُ «قَيْصَرِ»

وَقَضَى «بُرُوتُسُ» لَيْلَةً مُفْرِغَةً، مُسْتَسْلِمًا لِأَشْجَانِهِ، وَهُمُومِهِ وَأَحْزَانِهِ. وَإِنَّهُ لَغَارِقُ فِي وَسَاوِسِهِ يُقَلِّبُ بَعْضُ أَوْرَاقِهِ، إِذْ لَاحَ أَمَامَهُ شَبَحُ «قَيْصَرِ» فِي هَيْئَةِ مَرْعَجَةٍ؛ فَاسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ الدَّهْشَةُ، وَتَمَلَّكَهُ الْعَجَبُ مِمَّا رَأَى، وَصَاحَ فِيهِ مَدْعُورًا: «أَيُّ طَيْفٍ أَنْتَ؟ فَقَدْ أَرَعَجْتَنِي، وَكَادَ يَجْمُدُ الدَّمُ فِي عُرُوقِي لِرُؤْيَيْكَ.»



فَقَالَ لَهُ الطَّيْفُ: «لَسْتُ إِلَّا رُوحَكَ الْخَبِيثَةَ، يَا «بُرُوتَسُ»!»
فَقَالَ لَهُ وَجِلًّا: «فَمَا بِأَلْكَ تَزُورُنِي الْآنَ؟»
فَقَالَ لَهُ طَيْفٌ «قَيْصَرُ»: «إِنَّمَا زُرْتُكَ لِأُخْبِرَكَ بِأَنَّ لِقَاءَنَا وَشِيكَ (قَرِيبٌ).»
ثُمَّ اسْتَحْفَى شَبَحُ «قَيْصَرُ» عَنْ نَاضِرِهِ. فَصَاحَ «بُرُوتَسُ» فَزِعًا رَاهِبًا: فَانْتَبَهَ خَادِمُهُ
مَذْعُورًا مَرْعُوبًا، وَسَأَلَهُ عَنْ سَبَبِ صِيَاغِهِ.
فَقَالَ لَهُ «بُرُوتَسُ»: «لَسْتُ أَذْكُرُ أَنَّي صِحْتُ، وَلَعَلَّكَ حَالِمٌ فِي هَذَا؛ فَخَبِّرْنِي: هَلْ
أَبْصَرْتَ فِي مَنَامِكَ طَيْفًا؟»

فَقَالَ لَهُ خَادِمُهُ: «كَلَّا يَا سَيِّدِي، مَا رَأَيْتُ شَيْئًا.»
فَقَالَ لَهُ «بُرُوتَسُ»: «لَا عَلَيَّكَ، فَادْهَبِ الْآنَ إِلَى «كَسْيَاسَ»، وَاطْلُبْ إِلَيْهِ أَنْ يُبَكِّرَ فِي
زَحْفِهِ، صَبَاحَ الْغَدِ، لِأَنَّنِي قَدْ اعْتَزَمْتُ مُهَاجِمَةَ الْأَعْدَاءِ فِي إِثْرِهِ، وَإِنَّا عَلَيْهِمْ لَمُنْتَصِرُونَ!»

خَاتَمَةُ الْقِصَّةِ

(١) قُبَيْلُ الْمُعَرِّكَةِ

الْتَقَى الْجَيْشَانِ فِي سُهُولِ «فِيلِي»، وَتَحَفَّرَ الْجَمْعَانِ لِلِاسْتِبَاكِ فِي الْمَعَرَكَةِ الْحَاسِمَةِ، وَالْقَضَاءِ عَلَى الْعَدُوِّ قَضَاءً مُبَرِّمًا، لَا تَقُومُ لَهُ قَائِمَةٌ مِنْ بَعْدِهِ. وَتَشَاوَرَ «أَنْطُنْيُوسُ» وَ«أُكْتُفْيُوسُ» فِي خُطَّةِ الْحَرْبِ مَلِيًّا، ثُمَّ قَرَّ رَأْيُهُمَا عَلَى أَنْ يَنْحَازَ أَحَدُهُمَا (يَزْنِدُ وَيَمِيلُ) إِلَى يَمِينِ السَّهْلِ، وَيَذْهَبَ الْآخَرُ إِلَى الشَّمَالِ.

وَرَأَى زُعَمَاءُ الْمُتَحَارِبِينَ أَنْ يَتَحَدَّثَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قُبَيْلَ الرَّحْفِ. وَدَارَتْ بَيْنَ «أَنْطُنْيُوسُ» وَ«كُسيَّاسُ» مُلَاحَاضَةٌ (مُشَاتَمَةٌ) صَاحِبَةٌ، ثُمَّ قَالَ «أَنْطُنْيُوسُ»: «لَيْسَ لَنَا بُدٌّ مِنَ التَّنَكُّيلِ بِكُمْ، بَعْدَ أَنْ غَدَرْتُمْ بـ«قَيْصَرَ» الْعَظِيمِ، وَقَتَلْتُمُوهُ غِيلَةً (مَنْ حَيْثُ لَا يَدْرِي). وَقَدْ كُنْتُمْ — فِي حَيَاتِهِ — تَرْجُفُونَ (تَضْطَرِبُونَ)، وَتَقْبَلُونَ مَوَاطِئَ نِعَالِهِ، وَلَا تَأْلُونَ جُهْدًا فِي تَمْلِيْقِهِ وَالتَّزَلُّفِ إِلَيْهِ».

فَأَجَابَهُ «كُسيَّاسُ»: «لَوْ أَنَّ «بُرُوتَسَ» أَخَذَ بِرَأْيِي فِي قَتْلِكَ — بَعْدَ أَنْ أَهْلَكْنَا «قَيْصَرَ» — لَأَسْكَنْتَنَا لِسَانَكَ السَّلِيطَ (الطَّوِيلَ)، وَارْتَحْنَا مِنْ مَبَاهِتِكَ الْجَوَفَاءِ (الْفَارِغَةِ). عَلَى أَنَّ السَّيْفَ كَفِيلٌ بِالْقَضَاءِ بَيْنَنَا جَمِيعًا، وَهُوَ قَاضٍ عَادِلٌ، لَا يَرُدُّ لَهُ حُكْمٌ، وَلَا يُنْقَضُ لَهُ أَمْرٌ».

(٢) هَزِيمَةُ «أُكْتَفْيُوسَ»

وَطَالَ الْحَوَارُ بَيْنَ الْمُتَنَاطِرَيْنِ؛ فَاُمْتَشَقُوا سُيُوفَهُمْ (شَهْرُوهَا). وَالتَقَتِ الْجُيُوشُ، وَاسْتَبْسَلَ جُنُودُ الْفَرِيقَيْنِ، وَالتَحَمَّ جَيْشُ «بُرُوتَسَ» بِجَيْشِ «أُكْتَفْيُوسَ» فِي مِيدَانٍ، وَالتَقَى جَيْشُ «أَنْطُونْيُوسَ» بِجَيْشِ «كَسْيَاسَ» فِي مِيدَانٍ آخَرَ.

وَكَانَتِ الْقُوَى مُتَكَافِئَةً — فِي أَوَّلِ الْمَعْرَكَةِ — وَالنَّصْرُ مُشْتَرَكًا بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ. ثُمَّ رَجَحَتْ — فِي مِيزَانِ الْقِتَالِ — كِفَّةُ «بُرُوتَسَ» عَلَى خَصْمِهِ «أُكْتَفْيُوسَ»، وَأَجْلَاهُ عَنْ مَوْقِفِهِ، وَانْتَصَرَ عَلَيْهِ انْتِصَارًا بَاهِرًا.

(٣) مَصْرَعُ «كَسْيَاسَ»

وَقَدْ كَانَ أَحَجَى بِهِ أَنْ يَصْرِفَ جُهودَهُ إِلَى مُهَاجَمَةِ «أَنْطُونْيُوسَ»، بَعْدَ أَنْ تَمَّ لَهُ النَّصْرُ عَلَى عَدُوِّهِ. وَلَكِنْ «بُرُوتَسَ» لَمْ يَفْعَلْ، وَأَبَى إِلَّا أَنْ يُنْكَلَ بِخَصْمِهِ، وَيُحَرِّقَ خِيَامَهُ، وَيُخَرِّبَ سَرَادِقَاتِهِ، وَيُمِزِّقَ أَعْلَامَهُ وَرَايَاتِهِ.

وَنَظَرَ «كَسْيَاسُ»، فَرَأَى النَّارَ تَشْتَعِلُ فِي سَاحَةِ الْحَرْبِ، فَلَمْ يَدْرِ مَكَانَهَا، عَلَى التَّحْقِيقِ. وَخَشِيَ أَنْ يَكُونَ خَصْمُهُ «أَنْطُونْيُوسُ» قَدْ أَشْعَلَ النَّارَ فِي خِيَامِهِ — بَعْدَ أَنْ تَمَّ لَهُ النَّصْرُ — فَأَرْسَلَ قَائِدَهُ «تِيتْنْيُوسَ»، لِيَتَعَرَّفَ جَلِيَّةَ الْأَمْرِ. وَمَا ذَهَبَ «تِيتْنْيُوسُ» حَتَّى قَدِمَ خَادِمُ «كَسْيَاسَ» غَابِسَ الْوَجْهِ، كَالِحِ اللَّوْنِ: فَأَخْبَرَ سَيِّدَهُ أَنَّ «أَنْطُونْيُوسَ» قَدْ تَمَّ لَهُ النَّصْرُ عَلَى جَيْشِهِ، وَلَمْ يَبْقَ عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ يَأْسِرَهُ بَعْدَ قَلِيلٍ.

فَاسْتَدَّ جَزْعُ «كَسْيَاسَ»، وَحَسِبَ خَادِمَهُ مُتَنَبِّئًا مِمَّا فَاهَ (نَطَقَ) بِهِ؛ فَقَالَ لَهُ: «هَآكَ سَيْفِي — يَا غُلَامُ — فَاقْتُلْنِي بِهِ قَبْلَ أَنْ يَطْفِرَ بِي «أَنْطُونْيُوسُ»؛ فَإِنَّ الْحِمَامَ (الْمَوْتَ) خَيْرٌ — عِنْدِي — مِنَ الْوُقُوعِ فِي أَسْرِ الْعَدُوِّ». وَلَمْ يَكُنْ «بِنْدَارُوسُ» يَلْبِي أَمْرَ سَيِّدِهِ مُضْطَرًا، حَتَّى قَدِمَ الْقَائِدُ «تِيتْنْيُوسُ» يَحْمِلُ أَنْبَاءَ النَّصْرِ، لِيَرْفُفَهَا إِلَى «كَسْيَاسَ». وَلَا تَسَلْ عَنْ جَزَعِ الْقَائِدِ حِينَ رَأَى مَصْرَعَ صَاحِبِهِ، فَقَدْ بَلَغَ حَدًّا لَا يُوصَفُ.

(٤) مَصْرَعُ «بُرُوتْس»

وَلَمْ يَكُنْ «بُرُوتْس» يَتَعَرَّفُ هَذَا النَّبَأَ الْهَائِلَ، حَتَّى دَارَتْ بِهِ الْأَرْضُ، وَصَاقَتْ عَلَيْهِ السُّبُلُ، وَآيَقَنَ أَنَّ رُوحَ «قَيْصَر» الْعَظِيمِ قَدْ انْتَصَرَتْ عَلَيْهِمْ بِقُوَّتِهَا بَعْدَ مَوْتِهِ. وَسَمِعَ جُنْدُهُ يَتَوَاصُونَ بِالْفِرَارِ؛ فَتَحَطَّمَتْ آمَالُهُ، وَشَعَرَ بِعَجْزِهِ عَنِ مَقَاوِمَةِ أَعْدَائِهِ، وَرَأَى خِذْلَانَهُ؛ فَلَمْ يَجِدْ غَيْرَ الْمَوْتِ مُنْقِذًا مِنَ الْوَرُطَةِ، وَمُخْلِّصًا مِنَ الْمَازِقِ.

وَرَأَى «أَنْطُونْيُوس» وَصَاحِبَهُ «أُكْتَفْيُوس» يَقْتَرِبَانِ مِنْهُ، فَقَالَ: «الآنَ لَا خَيْرَ لِي فِي الْحَيَاةِ. فَوَدَاعًا أَيُّهَا الْأَصْدِقَاءُ، فَإِنِّي قَاتِلُ نَفْسِي بِالسَّيْفِ الَّذِي أَغْمَدْتُهُ فِي صَدْرِ «قَيْصَر»!

«...»

ثُمَّ قَالَ: «لِتَهْدَأْ رُوحُكَ السَّاخِطَةُ — يَا «قَيْصَر» — فَإِنِّي مُنْتَقِمٌ لَكَ مِنْ نَفْسِي!»
وَمَا أَتَمَّ آخِرَ كَلِمَةٍ مِنْ هَذِهِ الْجُمْلَةِ، حَتَّى سَدَدَ سَيْفُهُ إِلَى قَلْبِهِ؛ فَخَرَّ صَرِيحًا عَلَى الْأَرْضِ، وَفَاضَتْ رُوحُهُ.

(٥) مَرَثِيَّةُ «أَنْطُونْيُوس»

وَلَمَّا قَدِمَ «أَنْطُونْيُوس» وَ«أُكْتَفْيُوس» رَأْيَاهُ جُثَّةً هَامِدَةً؛ فَجَزَعَا لِمَصْرَعِهِ، وَأَضْنَاهُمَا الْحُزْنَ وَالْكَمْدَ.

وَرثَاهُ «أَنْطُونْيُوس» قَائِلًا: «لَقَدْ كُنْتُ أَنْبَلَ رُومَانِيٍّ، وَيَعْلَمُ اللَّهُ أَنَّكَ مَا قَتَلْتَ «قَيْصَرَ» عَنْ حَقْدٍ وَكَرَاهِيَةٍ وَجُحُودٍ (إِنْكَارٍ لِلْفَضْلِ)، وَلَمْ تَكُنْ تَعْرِفُ الدِّيْنَةَ (الْفَعْلَةَ الْحَقِيرَةَ)، وَلَمْ تَكُنْ فِي شِمَائِلِكَ (أَخْلَاقِكَ) غَادِرًا وَلَا حَاسِدًا، وَلَكِنَّ «كُسيَاس» الْأَثِيمَ هُوَ الَّذِي زَيَّنَ لَكَ هَذِهِ الْفَعْلَةَ الشَّنْعَاءَ، وَأَدْخَلَ فِي رُوعِكَ (قَلْبِكَ)، أَنَّ مَصْلَحَةَ بِلَادِكَ، وَخَيْرَ وَطَنِكَ، يُحْتَمَانِ عَلَيْكَ اغْتِيَالِ «قَيْصَر»؛ فَأَوْدَى (مَاتَ) مَبْكِيًّا، وَأَوْدَيْتَ مَأْسُوفًا عَلَيْكَ!»



ثُمَّ خَتَمَ رِثَاءَهُ الْبَلِيغَ قَائِلًا:

وَأَبْرَ مَنْ عَادَى، وَأَكْرَمَ مَنْ مَجَدُ
بَغِيًّا، وَقَدْ أَضْنَى قُلُوبَهُمُ الْكَمَدُ
قَدْ سَجَلَتْ — بِجُحُودِهَا — عَارَ الْأَبْدُ
إِنَّا عَرَفْنَا نُبْلَهُ فِيمَا قَصَدُ
ذَابَتْ قُلُوبُهُمْ، وَأَشْقَاهَا الْحَسَدُ
حَيًّا، وَحَيُّوا جِسْمَهُ لَمَّا هَمَدُ
سَطُرًا، إِذَا مُحِيتْ صَحَائِفُنَا خَلَدُ
عَرَفَ الدَّيْنَةَ — فِي شَمَائِلِهِ — أَحَدُ
وَأَجَلُ ذِي فَضْلٍ تَسَامَى وَانْفَرَدُ.

«إِنْ يَخْدَعِ الْأَشْرَارُ أَنْبَلَ مَنْ وَفَى،
أَوْ يَقْتُلِ الْأَشْرَارُ «قَيْصَرَ رُومَةٍ»
فَعِصَابَةُ الشَّيْطَانِ الْأُمُّ عُصْبَةُ
إِلَّا «بُرُوتَس» وَحْدَهُ — مِنْ بَيْنِهِمْ —
كَانُوا جَمِيعًا — مَا خَلَدُ — حَسَدًا،
حَيُّوا «بُرُوتَس»، وَاهْتَفُوا بِخَلَالِهِ
فَلْيُثَبِّتَنَّ الدَّهْرُ — مِنْ آيَاتِهِ —
وَيَقُولُ: كَانَ «بُرُوتَس» رَجُلًا، وَمَا
وَيَقُولُ: أَوْدَى فَخْرُ «رُومَةٍ» كُلُّهَا

